
الكتب خان
للنشر والتوزيع
عادل عصمت
صوت
الغراب
رواية

صوت الغراب

*

صوت الغراب
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٧
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٧٤٥٤
الترقيم الدولي: ٨ - ٧٣ - ٦٣٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
الغـــــلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفــون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



صوت الغراب

رواية

عادل عصمت



فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
عصمت، عادل
صوت الغراب: رواية/ تأليف: عادل عصمت. ـ ط١ . ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٧
١٩٨ص، ٢٠ سم
تدمك : ٨- ٧٣ - ٦٣٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ ـ القصص
أـ العنوان
رقم الإيداع : ٧٤٥٤
الطبعة الأولى ٢٠١٧

إلى أخي "عبده"

(١٩٦٤-٢٠١٣)

(١)

لم أفكر أن أرمي نفسي من البلكونة. لم أفكر في هذا أبدًا. حاولت أن أحدد اللحظة التي سمعت فيها الصرخة الآتية من بلكونة البيت المجاور. كلما أجهدت ذهني، أتوه في فراغ أبيض يمتد إلى ما لا نهاية، ومن بعيد يأتي صوت غراب، خافتًا متلاشيًا، لا يبددُ الصمتَ ولا يفارقُ الوعي. علمني المنظار كيف أنظر، وفي هذا اليوم لم أكن أفعل غير هذا، واقفًا في الشرفة أحدق إلى سور مدرسة البنات المواجهة للبيت، أراقب حشرات صغيرة تحومُ حول جذع شجرة الكافور، تطيرُ وتعودُ لتلتصق بالمناطق الداكنة من الشجرة.

أستيقظ من النوم في الظهيرة، تتبقى أمامي ساعتان حتى يحين ميعاد ذهابي إلى العمل في محل العطارة. أجلسُ في الشرفة أشربُ القهوة وأتابعُ ما يحدث في الشارع. هذا ما كنتُ أقوم به؛ مراقبة الهوام الصغيرة تحومُ حول جذع شجرة الكافور، صاحب الكشك يرص كراتين الشيبسي، وبعد ذلك يرش الطريق بخرطوم طويل معلق في حنفية الجراح المقابل. كان الجو حارًا والشمس تنعكس على نوافذ مدرسة البنات. هذا كل ما حدث، حتى شعرت بنفسي بين أيديهم، يقولون إنني كنت ألقى بنفسي

من البلكونة.

الفكرة لم تخطر ببالي أصلاً، وفكرة الطيران أوانها لم يأت بعد. كنت أفكر في دورة حياة الحشرات التي تضع بيضها في قشور شجرة الكافور وعندما تغمر حرارة الجو البيض، تخرج منه حشرات صغيرة لا تكاد تُرى، كنت أراها من هذا البعد ولا أملك تفسيرًا، ربما من طول معاشرتي للمنظار أصبحت أرى التفاصيل، كأنما سكنَ المنظارُ عيني، وأصبح يشكل بديلاً للرؤية، فعندما أركز بصري على شيء، بعد قليل، أرى التفاصيل.

انتهى كلُ شيء بالنسبة إليهم. بالنسبة إلي بدأ. الآن أرقد في غرفتي. أغلَقوا الباب وتلاشت تكات المفتاح، صوت "حسن" أخي الكبير يأمر أحدًا بالسكات. صوت "أم سعد": "يا خويا يمكن يعطش بالليل". الخطوات تبتعد، وصوت "محسن" مرتبك. لعلهم يتحدثون الآن عن إغلاق الغرفة، عما يمكن أن يحدث لي في حبسي. ربما يتحدثون عن جدوى الأمر، أو يفكرون في نقلي إلى مصحة. هذه أفكار "مريم". لكني لا أسمع صوتها. لم تأت "مريم" بعد من سفرها إلى البلاد، تجمع قصص الشباب الذين يعبرون الحدود ليغرقوا في البحر أو يتسللون إلى فلسطين ليشاركوا في عمليات فدائية، وتنشرها في الصحافة، وهناك في "درب الأثر" بجانب محل العطارة، أمام التجار والعمال والزبائن، يفخر "حسن" بأخته التي أصبحت صحفية مشهورة، ناسيًا أنه كاد يحطم رأسها يوم أن أعلنت أنها سوف تقيم في القاهرة لتعمل في الترجمة.

لم ترجع "مريم" من سفرها، لم تعرف حكايتهم عن أنني كدت ألقي بنفسي من البلكونة. سوف تسمع قصتي بتشكك، لقد تخلصت قليلاً من طريقتهم في التفكير، لكن البصمات ما زالت موجودة، ربما ستقترح أن أعيش في مصحة بعض الوقت. رغم أن سفرها ساعدها على النظر بطريقة مختلفة، لكنها مثلهم مكبلة بفكرة النجاح والفشل، بمشاعر لن تسمح لها بتذوق ما تظن أنها تبحث عنه. سوف تفكر مثلهم على هذا النحو العبيط.

سنوات طويلة من معاصرتي لطريقتهم في التفكير، تجعلني على يقين من أنهم لن يتمكنوا من حل المشكلة، ولن يعرفوا ما في قلبي. لن يعرف أحد تلك الفكرة التي تشكلت عبر زمن طويل، حتى وصلت إلى ذروتها في تلك الظهيرة. لم يكن الأمر كما ظنوا. لم يكن أوان الطيران قد جاء. ربما كانت فكرة الطيران تفكر في جسدي، ربما اقتربت من يقظتها وحاولت أن تتجسد. لقد حدث هذا في غفلة مني. كنت أفكر في الثقل وكيف أنه عائق أمام الطيران، وأتابع الحركة غير المنتظمة للحشرات. أفكر في أنها كلما خفّت، كلما أصبحت قادرة على الطيران، لكنها تبقى محكومة بخفتها، فلا يمكنها غير التهويم ملتصقة بمكان البيض الذي وضعته الريح بالصدفة في قشور شجرة الكافور. لا تستطيع أن تبتعد كثيرًا عنه أما بالنسبة إلي فالأمر رغبة في الطيران البعيد.

سوف أطير رغمًا عنهم حتى لو حبسوني كما فعلوا الآن. يظنون أن الحبس سوف يمنعني. لن يمنعني أحدٌ من أن أقف على سياج الشرفة

وأطير. نَضج الأمرُ وأصبح من الصعب التراجع عنه، وسوف يجيء اليوم الذي أحركُ فيه أجنحتي الثقيلة السوداء، وأحلق فوق شجر كافور مدرسة البنات وأنطلق إلى سماء المدينة، ناشرًا صيحتي الخشنة في كل مكان. لن يتمكنوا من أن يوقفوا الأمر. أنا نفسي لا أستطيع إيقافه، قاومته طويلاً حتى أدركت أنه سوف يحدث، فتركته يحدث.

يسري المخدر في دمي، يتسلل إلى أعضائي. يُثير ضيقي لأنه يطمر وعيي ويجعلني أتفرج على نفسي من بعيد. أحتاج إلى وعيي الآن، أحتاجه لفحص الطريقة التي سأطير بها. فلأترك الأمور تسير بقوانينها كما تركتها تفعل طوال أربعين عامًا. لا يهم، فليسحب المخدر الوعي، سيظل هناك وعي أكثر عمقًا من ذلك الذي شقيت به، وفي الصمت سوف تنمو الأجنحة، وستصل إلى اكتمالها ذات يوم.

أعرف أن "محسن" يقف مضطربًا من فكرة الحبس، بعد أن أعطاني الحقنة، لكنه لا يمكنه أن يخالف قرارات "حسن". ربما يقف في الصالة يراجع في ذهنه علوم الطب، محاولاً قدر إمكانه أن يساعدني. يبدو مسكينًا وهو يتوهم أن أذىً وقع عليّ. المضحك هو موقف "حسن" الذي يرعى صورة العائلة. الصورة الغامضة التي يظن أنهم يعيشون في إطارها، وأُخربها لهم بسلوكي، بالضبط كما حدث مع عمتي "سعاد" منذ ثلاثين عامًا، عندما حاولت أن تعيش بطريقتها وحطمت الصورة، فتركوها تموت وحيدة في شقة الخزين في البيت الكبير.

"حسن" مضحك عندما يتحدث عن الاعوجاج، وهو نفسه عاصر

الكثير من الاعوجاج في العائلة. كيف لا يرى هذا الميل التي يطرح جيلاً بعد جيل، هذا النزوع الى تحطيم الحياة. "حسن" لا يعرف إلا ما يريد أن يعرف. يريد أن يحافظ على الجانب الظاهر من العائلة التي بدأت العمل في تجارة الأعشاب منذ أكثر من مائة عام، على يد رجل جاء من بلاد بعيدة، وسكن المنطقة المحيطة بالجامع الأحمدي.

* * *

(٢)

شجرة العائلة تطرحُ كلَ فترة فرعًا معوجًا. في حدود التاريخ المعروف حدث هذا ثلاث مرات. المضحك أنه لا أحد يتذكر. عاصر "حسن" موت عمته "سعاد"، وغرام جده "بدوي" بالبنات الصغار في نهاية حياته، إلا أنه لا يفكر إلا في صيانة صورته الذهنية عن العائلة. "أم سعد" نفسها وعجائز شارع الحلو، حيث كان بيتنا القديم، ما زالوا يذكرون أول حكايات عائلة البري وأقدمها، "مندور البري"، أحد عماليق الزمن القديم. كان ذلك في بداية القرن. يُقال إنه صرع وحشًا، كان يمنعُ الناسَ من المرور في أثناء الليل إلى بيوتهم.

الناس في الحِتة كانوا يسمعون صوت نبوته يطرق الأرض في الفجر، عندما يخرج من الباب الخشبي، قاطعًا الشوارع المتشابكة بالقرب من حلقة القطن، ويصعد التل إلى الجامع الأحمدي. في تلك الأيام حسب حكايات "أم سعد"، كانت الوحوش لاتزال تعيش بيننا. لم يكن تم طردها بالصخب والكهرباء إلى أماكن أخرى، تحت الأرض أو في أجساد الناس؛ فهي تظن أن العفاريت تسكن الفضاء، والأماكن

الخربة، والليل. أما بعد أن تم بناء الخرائب بيوتًا وعمارات، والليل تم احتلاله بالكهرباء والسهر، فأين يمكن للعفاريت أن تذهب؟ لا بد من أن تجد مكانًا. هبط الطيبون منهم إلى باطن الأرض، وبعضهم سكن أجساد البشر. طول عمرى أحب حكايات "أم سعد" وأعتبرها أكثر تعبيرًا عن الحياة من الحكايات السادة ذات الخطوط المستقيمة الخالية من الحيوية التي يحكيها "محسن" وهو الطبيب المدقق. على سبيل المثال "أم سعد" تحكي أحيانًا بعض حكايات الأرواح التي تتلبس الإنسان لكي تشير من طرف خفي أن جسدي مسكونٌ بأحد هؤلاء. في الحقيقة نظريتها أقرب إلى نفسي من حديث الطبيب وعلاجاته.

جدي "مندور" كان يطارد العفاريت بنبوته. في وجوده كان الناس ينامون مطمئنين، حسب رواية "أم سعد" التي سمعتْها وهي طفلة، من ناس أكبر منها. كان حكمًا بين الناس، لم يظلم أحدًا، وفي المواسم لا ينسى أحدًا. في منتصف عمره خرج عند الفجر كالمعتاد، لكنه لم يصل إلى الجامع الأحمدي. الشيخ "توفيق عرفة" صديقه ورفيقه في الصلاة والسهر، ظل قلقًا من تخلف "مندور" عن الصلاة. أدى صلاة مضطربة في ذلك اليوم، مشغولاً بغياب صاحبه؛ فلم يحدث أن مرض، أو تناول "شَرْبة"، وإن كان يجرب الوصفات التي يبيعها في محل العطارة، غير أنه لا يتخطى الحدود. قضى "الشيخ توفيق" وقتًا طويلاً في تسبيحات الصباح خائفًا، وعندما وصل إلى الوكالة، كان شارع درب الأثر خاليًا و"رزق" عامل الوكالة يقف عند الباب ينظر إلى عمق الطريق، وعندما رأى "الشيخ توفيق" يتقدم وحده، غام وجهه، فأدرك الشيخ صدق مخاوفه.

هجر "مندور البري" البيت، تاركًا وراءه صبيًّا وثلاث بنات. وقتها كان جدي "بدوي" في الخامسة عشر من عمره. كانت أيام الاضطرابات عام ١٩١٩ عندما سيطر عساكر الإنجليز على مبنى المديرية، ونصبوا المدافع فوق سطح محطة السكة الحديد. كانت البلاد في حالة صخب، والناس تهتف ليل نهار: "سعد سعد، يحيا سعد"، طلاب مدرسة الصنايع، وطنطا الثانوية، والتجار والموظفون وأصحاب الحرف، يتجمعون في ساحة المحطة التي مات فيها الكثير أثناء المذبحة التي حدثت في إبريل من نفس العام. في الظهيرة ترك "بدوي" تنظيم المظاهرة في المدرسة، عندما ناداه الشيخ "توفيق" وقال له بثبات: "أبوك لم يفتح الوكالة مثل كل يوم".

كان التخمين الأقرب إلى الصواب أن يكون عساكر الإنجليز قد اعتقلوه، أو قتلوه وألقوه في الطرقات كما كان يُشاع في المدينة في ذلك الوقت. استمر البحث عنه ثلاثة أيام بلا جدوى، وعندها كان على "بدوي" أن يخلع بدلة المدرسة وينزل ليدير الوكالة. بعد عدة أيام، استبعد الشيخ "توفيق" علاقة الإنجليز باختفاء صديقه، بعد أن استعمل صلاته بجهات الإدارة وقابل مدير المديرية وتحدث معه، وأخبره الحاكم الإنجليزي أن الليلة التي اختفى فيها "مندور البري"، كانت أهدأ الليالي، لم تُرصد فيها أية حركة في الشوارع.

ظل اختفاء "مندور البري" لغزًا طوال ثلاث سنوات. تعلم ابنه "بدوي" مزاولة الأعمال وتدبير أمور الدار والتجارة. استقرت الحكاية

القديمة عن قتله للوحش وارتبطت باختفائه، مؤلفةً قصةً تليق به. قال الناس إن العفاريت دبروا له مكيدة، وأحالوا عليه إحدى جنياتهم، كمنت له قبل وصوله إلى الجامع، أغوته وسحبته وراءها. استقرت تلك الحكاية كأنها الأصل، ما دام الإنجليز صادقين.

ذات يوم عاد أحد الدراويش من مولد الحسين وتوجه إلى مجلس الشيخ "توفيق عرفة" بعد صلاة الفجر، وهمس في أذنه أنه رأى "مندور البري" في مولد سيدنا الحسين، يقف على النصبة ويذهل الناس بغنائه. مال الشيخ "توفيق" إلى تصديق الأمر، لأنه من بين مجموعة صغيرة من الأصحاب يعرف قوة صوت مندور وحسنه، أهل بيته أنفسهم لا يعرفون الأمر. كان أحيانًا ينشد ترتيلاً أو موالاً بخفوت، لكن في جلساته المباركة يتجلى ويعلو صوته بالأغاني. "لا حول ولا قوة إلا بالله"، هذا ما قاله الشيخ توفيق في هذا الصباح وأمر الدرويش أن يكتم الخبر حتى يتحقق من الأمر، وقبل أن يتحدث مع أهل بيته، سافر إلى الحسين لكنه لم يعثر له على أثر.

وصل جدي "بدوي" في ذلك الوقت إلى التاسعة عشر، وجهز نفسه للزواج. الزواج المبكر يصون الولد من الشطط، ويحمي البيت والعائلة والتجارة، لكنه في نهاية عمره ـ ربما بسبب ذلك ـ وقع في غرام البنات الصغار، وكاد أن يضيع ما صان طوال حياته. تحمَّلَ أبي مداواة تلك الأهواء التي كادت تعصف بكل شيء، فقد كان الجد العجوز يبيع بضاعة برخص التراب ويلقي بأموال طائلة لمجرد أن ينام مع فتاة صغيرة.

تزوج في نهاية حياته بثلاث بنات. أنجب من إحداهن بنتًا صغيرة. استطاع أبي أن يظلم أخته غير الشقيقة ويمنحها نقودًا مقابل التنازل عن الميراث. لكن في ذلك الوقت البعيد بعد اختفاء "مندور البري"، كان جدي "بدوي" يأخذ الحياة بجدية، ويحرص على أن يزن الحمل كي لا يميل، متحمسًا أن يملأ الفراغ المغري الذي يشغي بالطاقة التي أحاطت بمندور البري. كان يشعر بالفخر لكونه يجلس على نفس المقعد الخشبي مرتديًا نفس العمامة. لم يترك الرجل مكانه خاليًا ولكنه ترك ظلاً يُسيّر الأعمال. يبدو أن هذا الفراغ الجاذب الذي تركه الجد الكبير ظل يشغي بالطاقة حتى الآن؛ فالكثير من تصرفات "حسن" فيها هذا الهوس بالمقعد الذي كان يجلس فيه ذلك الجد الذي قتل الوحش.

في غياب "مندور البري" ترسخت الحكاية، كأن القوة الهائلة لا تليق بحياة تُجار العطارة، بل بحياة كائنات غير بشرية. حجب الشيخ "توفيق عرفة" أمر العثور على الغائب في الموالد حتى بدأت الحكايات تتراكم وتنتشر؛ فقد شُوهد في مولد سيدي إبراهيم الدسوقي وعند المرسي أبو العباس وفي الصعيد، حينها قرر الشيخ "توفيق" أن يفاتح "بدوي"؛ فلا بد لأهل بيته من أن يعرفوا. كانت الحكاية التي يحكيها الناس قد تحققت بطريقة واقعية. كانوا يقولون عندما تسرب الأمر من رواد الموالد وملأ فضاء المنطقة المحيطة بالجامع الأحمدي بأن "مندور البري" يُغني بصحبة مغنية رائعة الحسن كأنها جنية. وهم يؤلفون الحكاية التبس عليهم أمر الطريقة التي سحبته بها الجنية من بيته وبلدته. ظل التفسير يتراوح بين كونها قد كمنت له، في حلقة القطن، في المكان الذي قضى فيه على

الوحش، وبين كونها امرأة حقيقية انتظرته تحت البيت، وبخاصة أن الكثيرين تَقَولوا بأنه كان يرافقها عندما كانت تأتي هنا في الموالد. انتشرت تلك الحكايات حتى حدود الوكالة. كانت معروفة للعمال لكنها ظلت مجهولة في فضاء الوكالة الذي كان يديرها جدي "بدوي" بطريقة حاسمة في فترته الأولى. ظلت هذه الحكايات بعيدة عنه حتى حدَّثَه الشيخ "توفيق" ذات يوم مضطرًا. لم يكن هناك غير الصمت، وعدة رحلات إلى الموالد، ولكن لم يُعثر لمندور على خبر، كأنه كان يدرك ما ينوون عليه فيختفي من المولد الذي يذهبون إليه.

اختفاء "مندور البري" ظل لغزًا حتى نهاية الحياة. ما حدث له، ما حدث لغنائه الذي لا يُضاهى ظل أمرًا غريبًا علينا. "محسن" يمكنه أن يلتقط الألحان بطريقة فذة وصوته جميل لكنه رفض تلك العطية وغرق مذعورًا من حسه الفني، في دارسة الطب وفي حياة منظمة شديدة التحديد يقلقها أقل الهفوات خروجًا عن المسار. أقام حصارًا حول ميله للموسيقى وحطمه في مهده، لا يمكنني لومه؛ فكوارث العائلة التي حدثت بسبب الخروج عن الخطوط المرسومة كانت موجِعة لأصحابها وقادتهم إلى نهاية مأساوية.



(٣)

بداية السبعينيات فترة صاخبة مغمورة بالحكايات، تصلنا أصداؤها ونحن نلعب في الحارة الضيقة المجاورة لبيتنا، نعرف أخبار من يذهبون إلى الجبهة، من يهربون من الجيش ويطاردهم العساكر في الحواري، من يقطعون بِنصر إصبعهم من أجل أن يفلتوا من التجنيد. رأينا نعوشًا، وسمعنا عن شباب لم يعودوا من الجبهة أبدًا. راقبنا أول وقف لإطلاق النار في السماء. "وقف إطلاق النار الساعة اتناشر بالليل"، قال "عم ياسين" الحلاق الذي كان ينظم حلقات النقاش السياسي، وأول من يُذيع الأخبار، بعد أن يرش الطريق بالماء: "بيقول لك وقّعنا ثلاث طائرات".

السماء أيضًا أخذت معنى آخر، لم تكن هي نفس السماء التي يتطلع إليها الناس ليعرفوا شيئًا عن الطقس أو يرفعوا أيديهم طالبين العون، ظهرت لنا فضاءً يمكن تحطيمه، تصرخ فيه الطائرات. عرفنا فكرة "أسرع من الصوت" في تلك الأيام. أحيانًا يحدث انفجار هائل يسميه "عم ياسين" "تفريغ هواء". لم أكن أصدقه وظللت معتقدًا أن تلك

الانفجارات تركت حفرًا في الفضاء، لو امتلك المرء منظارًا مكبرًا سوف يراها. أصبحت السماء مصدر قلق وساحة معارك؛ مكانًا خطرًا يمكن أن تنزل منه قنبلة تبيد البلاد. كانت الحياة متوترة، فيمكن للأعداء أن يرسلوا رسائل مسممة أو مساحيق تمحو ملامح الوجوه، صمغًا يلصق الأصابع ببعضها، أو طرد ديناميت صريح ما إن تفتحه حتى ينفجر في وجهك، كما كانت تحذرنا الملصقات الإعلانية، على جدران مدرسة الإمبابي الابتدائية، حتى لا نلتقط أي شيء من الأرض.

كانت أيام خيال، مناسبة لطفل غريب، يُحب الاختباء في الدواليب وتسلق الأسوار، والبحث في الأماكن المهجورة عن أشياء منسية، والوقوف في أماكن لا تخطر ببال أحد، كأنه يبحث منذ ذلك الوقت المبكر، عن زوايا مختلفة للنظر. في الصباح تنبهني أمي ألا أحمل أي شيء من الأرض. أقطع الطريق باحثًا في جوانبه عن تلك الرسائل الغريبة. في المدرسة أيضًا ينبهون علينا: عندما تجد شيئًا على الأرض لا تحمله. كان التنبيه ينتشر في المدرسة وفي ذيله حكاية عن ولد وجد قطعة ذهبية، تحولت إلى صفيح عندما لمسها، والبودرة الذهبية حولت أصابعه إلى عظام كأنها غُمرت في ماء النار. في طريق عودتي من المدرسة أتلكأ بالقرب من الحلقة التي تضم عم ياسين الحلاق ورفاقه، وأسمع حكايات أخرى، متمنيًا أن تصلني رسالة من تلك الرسائل التي يرسلها الأعداء، تمنيت أن أصادف تلك الطرود والخطابات لكن حظي كان سيئًا، فهذه العجائب لا تحدث لي.

كادت تلك الفترة أن تمر دون أن أنال نصيبي من الخيال الذي أثارته، حتى جاء حادث صغير بدا لي، بعد ذلك بسنوات، أنه بداية اليقظة، بداية تشكل "الغراب". كنت ألعب "الدبور" في الحارة، عندما أطَلَّت أمي من نافذة الصالة مبتسمة وقالت: "كَلّم عم دسوقي". كدت أتملص من طلبها كالعادة وأواصل اللعب، لكنها أومأت بطريقة ذات مغزى. تركتُ "الدبور" وتوجهتُ إلى مدخل البيت. رأيتُ "عم دسوقي" يقف بهيأته النحيلة وشاربه الأبيض، والبالطو الكاكي الذي لم أره مرة واحدة بدونه. يصحب دراجة جديدة ما زالت الأوراق تحيط بدعاماتها المعدنية. كانت أول فرحة تهز قلبي الغريب المضطرب. كلمات عم "دسوقي" في هذا اليوم رسَّخَت الغرابة: "أبوك بعتها لك لأن ناظر المدرسة كان يشتري لوزام سبوع ابنته من محل العطارة وقال له ما شاء الله ابنك نبيه وله مستقبل".

تحولت الدراجة إلى عطية سماوية بهذه الحكاية. فتلك الصُدف لم يكن لي أي دخل بها. كنت بعيدًا عن تلك الصفات التي وصفني بها الناظر؛ لم أكن نابهًا، بل طفل شارد، كسول، يُفضل اللعب على أداء واجبات المدرسة. أقف متراخيًا في الطابور، ولا تُثير حماستي الأناشيد الوطنية. ما كان يُثير خيالي هو العجائب التي تحملها الرسائل، والحكايات التي أسمعها كلَ يوم. كان أبي الذي لا أراه إلا أوان الطعام قد تذكرني فجأة وأرسل دراجة على سبيل الهدية، لشخص متفوق لم أكُنْهُ أصلاً. في ذلك اليوم توارت قصص "عم ياسين" الحلاق، ولعب الدبور في الحارة. فضضتُ الورق، وقدتُ دراجتي، وعيال الحتة يلاحقونني، حتى تعبوا

من أنانيتي واقتنعوا بأنني لن أعطيهم، اليوم على الأقل، لفة بالدراجة الجديدة.

انفردتُ بنفسي، وانطلقت بأقصى سرعة، في شارع الجلاء الخالي. هنا، حدث شيء في جسدي، انبعث في كياني فرحٌ سري بالخفة. اكتشاف الخفة مبهجٌ مثل الاستيقاظ من حلم مقبض، وإدراك أنك حي، أنت هنا، يمكنك أن ترى وتسمع وتشعر بلمس الهواء لوجهك، في لمحة عابرة تعرف ماذا يعني أنك موجود، لحظة خاطفة، تتلاشى لكنها تغمرك بالسر طول العمر. ما فكرت فيه في ذلك اليوم، أن أزيد السرعة حتى تخف الدراجة وترتفع عن الأرض، لاحقت سرعة حركة قدمي على البدال، منتظرًا أن تصل إلى حدودها القصوى، وتفلت من متابعتي. ربما هنا بدأتْ سرًا فكرة الطيران. لا يمكنني الجزم بشيء. الحقيقة أنني في أثناء السرعة القصوى انحرفتُ يسارًا تحت كوبرى القُرَشي ثم خرجت من النفق مِثل الريح، شعرتُ بنفسي أطير. رأيتُ المشهدَ بعيني. كنت أقودُ الدراجة في الفضاء بالقرب من آخر شرفة.

عدتُ مرهقًا قبل المغرب. كان البيتُ مشغولاً بإعداد الطعام قبل أن يعود الرجال من الوكالة. تمددتُ على الكنبة. النافذةُ مفتوحةٌ والفضاءُ واسعٌ، غفوتُ ثم صحوتُ في وقت تواري الضوء ودخول الظلام. لم تكن أمي موجودة وزوجة عمي في شقتها. صمتٌ كاملٌ. فتحتُ عيني فرأيتُ طائرًا عملاقًا هناك في السماء، له أجنحة سوداء يحوم فوق المدينة، ببطء، تاركًا أجنحته مفرودة كأنه يطفو. فتنة المشهد التي

احتفظت بنفسها حية على مدى السنين هي ما دعتني بعد ذلك أن أظن أن تلك اللحظة هي البذرة الأولى لما وصلت إليه. تبدد كلُ شيء، عندما سمعت صوت أقدام أمي صاعدة سلالم البيت تتحدث مع "أم سعد". اختفى المشهد، وعندما سألت العيال في اليوم التالي عن الطائر الكبير الذي كان يحلق في السماء في المغرب تحسَّرَ بعضهم لأنه لم ينظر إلى السماء في هذا الوقت حتى يمكنه أن يرى الطائر الذي أرسله الأعداء ليتجسس علينا.

كان حلمي يشبه الحكايات التي أسمعها كل يوم. حلم الطيران دخل في سياق القصص التي ملأت الفضاء. هجرتُ الدبابير وأصبَحَتِ الدراجةُ لعبتي الأساسية، أنطلق بها كلَ يوم محاولاً الوصول إلى اللحظة السرية للخفة. كنت أصادفُ أحيانًا حسًا قريبًا من اللحظة الأولى، وفي الغالب كنت أعود خائبًا. أجَرش الدراجة تحت السلم، منتظرًا اليوم التالي ربما أحصل على تلك اللحظة مرة أخرى.

لم يحدث ذلك إلا مرة واحدة عندما ماتت عمتي "سعاد".

* * *

(٤)

حكاية عمتي "سعاد" أثقل حكايات هذه الفترة وأشدها كربًا. لم أكن أنتبه إلى ما يدور همسًا بين نساء البيت عن غرامها بابن أحد عُمَّال الوكالة. صحيح أنه تخرج في كلية العلوم، لكنَّه في النهاية ابن عامل في وكالة جدودها. كان أمرًا مثيرًا، لا يتم البوح به علانية. كلمات متناثرة هنا وهناك. حس بالدهشة والخوف، يسري في نبرة الأحاديث السريعة المقتضبة. في أحد المرات رأيتُ عمي "صلاح" يتحدث معها بغضب، وهي تجلس على طرف الكنبة في الصالة تحدق إلى بوز حذائها. شعرُها مقصوصٌ حتى الكتف، وفستانُها يكشفُ ذراعيها؛ ورغم أن هذا الملبس كان عاديًّا في تلك الفترة، فإنه كان في بيت البري أمرًا غريبًا.

كنت مشدودًا تجاه أخيلتي فلم أنتبه إلى حكاية عمتي إلا في ذلك المساء، الذي رأيت الناس أمام محل الحلاق تقف وتتطلع باتجاه نهاية الشارع، ثم رأيتُ عمي "صلاح" يجرُ عمتي "سعاد" من يدها ويقول: "والله لأولع فيك". كانت ترتدي فستانًا أبيض، وتمسك بحقيبتها، غير منتبهة إلى تعثرها وتسلخ ركبتها. وصل إلى باب البيت، ودفعها إلى

الداخل. جريت مرعوبًا عندما سمعت صرخات تصدر من عند باب الشقة التحتانية (شقة الخزين) كما كانوا يسمونها، وعندما أتيح ليَ النظرُ، رأيتُ "أم سعد" مكومة على عمتي "سعاد" تتلقى عنها الضرب.

منذ ذلك المساء، كل خبر عن عمتي يلفت نظري. تتبعت الحكايات التي تدور همسًا في جلسة النساء في المساء. عمي "صلاح" كاد أن يجن بسبب عنادها. المشكل في الأمر أن "سعاد" كانت "حرة". ذلك هو التعبير الذي استخدمته "أم سعد" في وصف عمتي بعد ذلك بسنوات طويلة. كانت تنبهني ألاَّ أظن بها الظنون، كل ما في الأمر أن البنت رفضت سطوة أخيها، وقابلت الولد علنًا، وقالت لكل من يسألها إنه خطيبي، والمصيبة أنها كانت تودَّعه على المحطة عندما دخل الجيش. حتى جاء ذلك اليوم الذي رجعت فيه من المحطة خائفة، كما قالت "أم سعد": دفنتْ رأسُها في صدري وقالت: "قلبي مقبوض يا أم سعد". يومها حاولتْ "أم سعد" أن تطمئنها، وذكّرتها بأن "صلاح" عصبي لكن أخاها الكبير "الحاج عبد السلام" يمكنه أن يحل المشكلة. كانت شاردة كأن قلبها أحس بما سيحدث. في اليوم التالي عرفتْ أن خطيبها مات تحت عجلات القطار وهو في طريقه إلى وحدته العسكرية في الإسماعيلية.

ذهب عقل "سعاد" منذ ذلك الوقت. اتهمتْ "صلاح" بأنه أجَّرَ واحدًا من صبيانه ليدفعه تحت القطار. كانت مقتنعه بالأمر، كأنها رأت ما حدث. كان قلبها محروقًا ولم يكن أحد بقادر على السيطرة عليها. أصبحتْ تجلس على رصيف المحطة بالساعات. البلد صغير والناس

تذهب إلى الوكالة وتخبر "صلاح" بأن أخته تجلس على رصيف المحطة. قالوا أكثر من ذلك. قالوا إنها تجلس في محل حجازي الحلواني وتُدخن السجائر، وأنها تقف وحدها على ناصية شارع سعيد، وتعاكس الناس، وقالوا إنها كانت تبحث عن التُربي لتعرف القبر وتذهب لتُخرج خطيبها منه. كان هذا ما جَن "صلاح". يظهر الحزن على وجه "أم سعد" وهي تحكي: "عقلها تاه". "طلبتْ مني أن أصحبها إلى الجبَّانة". كانت تُصر على أن تُخرج الشاب من تحت التراب لتتزوجه.

اختفت عمتي "سعاد" من البيت. حيرني الأمر، ولم أجرؤ على السؤال؛ فالبيت متوتر ويمكن أن ينال المرء علقة بسبب سؤال مثل هذا. حتى كانت تلك الظهيرة التي سمعت فيها أنينًا خافتًا أثناء صعودي السلم. أدركت أنني أسمع هذا الأنين بالليل ولا أعرف مصدره.

كانت ظهيرة صيف. أرى نفسي أثناء صعودي السلم. ضوء الشمس ينطرح على بسطة السلم وضَيّهُ يغمرُ السياجَ الحديدي ويكشف الأتربة المتراكمة وخيوط العنكبوت، صوت بائع العرق سوس، وحوافر حصان حنطور تضرب الأرض. الصورة التي تُرَدُ إليّ الآن مُرسَلة من مخزن الذاكرة، تنقل المنظر كاملاً، وصورتي التي لم أكن أشاهدها وقت صعودي السلم، تظهر في صورة الذاكرة، كأنما كان هناك شخص يراقبني. لماذا تصور الذاكرة المشهد من الأمام وليس من الزاوية التي كنت أرى منها؟ تخلق الذاكرة لحظة أخرى، غير معتمدة على زاوية نظري عندما كنت أعيش الحدث، تنشئ مشهدًا جديدًا. لا يمكن الوثوق في

الذاكرة إلاَّ على أساس أنها قرينة على ما حدث. لا تملك دقة نقل ما حدث. الزاوية التي تلتقط منها صور الذاكرة شاهد على وجود الذات الأخرى التي تراقبُنا وتُصورنا وتضعُ ذلكَ في السجلات.

الصوت يئن ويصمت، ثم يعود مرة أخرى، كأن شخصًا يتأوه للداخل وهو ضامم شفيته: هييه هيييه. غاب كل شيء عدا الأنين. هبطتُ عدة درجات، وتابعتُ مصدر الصوت. بابُ الشقة التحتانية موارب. لا بد من أن الصوتَ يصدرُ من هناك. الشقة التحتانية دائمًا مغلقة النوافذ. الكنب المجاور للحائط في الصالة رائحته تراب، وباب غرفة الخزين مفتوح، وبراني السمن والعسل الأسود مرصوصة بجوار الحائط. اقتربتُ من مصدر الصوت. التأوه خافتٌ هذه المرة. كنتُ أعرفُ الشقة التحانية، فقدْ رافقتُ "أم سعد" كثيرًا في فترات الخزين، لكن الأنين جعلها كبيت الأشباح. صعبة تلك اللحظة. ارتجفَ قلبي أو برُدَ أو تبدد.

في الغرفة الداخلية البعيدة عن الشارع، رأيتُ جسدًا يرقدُ على سرير من الأسرّة القديمة بأعمدة من النحاس. الغرفة لها رائحة بول وعطَن. لم تَرُدَّني المخاوف، كنت منجذبًا بطريقة نافذة. جسدٌ ملفوفٌ في بطانية في عز الصيف، ورائحة بول تفوح. فكرتُ أنه أحد الشحاتين، جاءت به "أم سعد" إلى هنا رحمة به، حتى أدار رأسه تجاهي. حضر الرعب. كان الرأس خاليًا من الشعر، فلم أعرف إن كان رجلاً أم امرأة. لكن التأوه الغامض الذي قادني إلى هناك، هو ما جعلني أدرك أنها

عمتي "سعاد". في تلك اللحظة الغامضة من الإدراك، رأيتُ في الوجه الشاحب، الأنفَ الطويل والجبهةَ العريضة والفمَ الغليظ والذقنَ العريض لعمتي. حضرت الملامح وأيقنت أنها عمتي. هناك جروح على جبهتها ودم متخثر. وشممت رائحة غريبة تصدر عن جسدها، ربما رائحة تحلل. أدارت وجهها إلى الحائط، ثم عادت لتنظر تجاهي مرة أخرى. صدر الصوت خافتًا بعيدًا كأنه يتوارى. فتحتْ عينيها وانطلق منها بريقٌ، وخُيّل إليَّ أن ظل ابتسامة لاح على وجهها قبل أن تُغمض عينيها وتُصدر أنينًا أعلى قليلاً. تثبتُ في مكاني لا أعرف ماذا أفعل. الصوت يتوارى بعيدًا ولا يبقى إلا تنفسٌ خافت.

أيقظني صوتُ عمي "صلاح"، يتحدثُ مع شخصٍ أمامَ باب البيت. أدركتُ أنه نسي البابَ مفتوحًا. لحظةُ الانتباه مربكة. الجسدُ يتحرك وحده. بمجرد سماعي صوت عمي "صلاح" استيقظت، وحضر الخطرُ بكامل قوته، وفي ثانية كنتُ قد تسللتُ من الباب وصعدتُ عدة درجات، وعلى البسطة الأولى توقف الخطر، فتوقفت. وبسبب عنادٍ أصيل رغبتُ أن أعود مرة أخرى لكي أطل على عمتي.

عرفتُ الآن سرًا عن عمتي سعاد. عرفتُ شيئًا لا يتخيل أيُ شخص في العائلة أنني أعرفه. رأيتُ عمتي قبل موتها. لو عاشت عدة أيام أخرى، عدة أسابيع، لما أصبحت تلك اللحظة بهذه الكثافة. لما أمكن لكل لمحة ورائحة وحركة أن تحيا هذه الحياة الأبدية.

في اليوم التالي جاء صراخ أم "سعد" من باحة البيت وبدد صمتَ

الصباح، تبِعَهُ صوتُ عمي "صلاح" يشخط: "اسكتي يا ولية مش عاوز أسمع صوت". أيقظني الصوت كأنه صادر عن الجهة الأخرى من العالم. اندفعتُ من السرير حافيًا إلى خارج الشقة. أطللت من فوق البسطة إلى باب الشقة التحتانية. عرفتُ الخبر دون كلام. عمي "صلاح" يقف في مدخل البيت، يتحدث مع "أم سعد" وامرأة أخرى ترتدي جلبابًا أسود. من فوق بسطة السلم كان بصري يمتد إلى الظلال في مدخل الشقة التحتانية متخطيًّا الباب الذي فُتح مصراعاه الآن. أثناء عودتي إلى الشقة كنت ضائعًا. قابلني حسن ومحسن بجلابيب النوم. تركتهم يهبطون وتوجهت إلى الحمام. كنت أريد أن أغمر قدمي بالماء. فتحتُ الحنفية وتركتُ الماء يغمر قدمي. الماء هو ما أعاد إلي صفتي ككائن من عائلة. شعرت بالبول، أفرغت مثانتي على أرضية الحمام دون أن أراعي شيئًا. عدتُ إلى غرفتي فتلبسني فجأة خوفٌ ثقيل كأن هناك شيئًا داكنًا وأسود في الحياة، رأيتُ طرفًا منه.



(٥)

الأصوات لامعة لها رنين في ذلك الصباح. النساء لا تكف عن النزول والهبوط تحمل طشوت النحاس الكبيرة إلى الشقة التحتانية. الصرخات تنطلق ثم تُقطع في منتصفها، عندما يرفع عمي "صلاح" صوته، ويَهّبُ واقفًا من مقعده أمام باب البيت. كل شيء هش يمكن أن ينكسر إلى آلاف الشظايا. انتبهتُ إلى السمة الزجاجية لهذا الصباح، عندما رأيتُ أبي يجلس على الكنبة في الصالة وخلفه النافذة الكبيرة المطلة على الحارة مفتوحة، تطول الشمس إطارها وتترك ضيًّا على جلبابه الواسع، وشعره الأسود الخشن، ويبدو وجهه داكنًا عجوزًا. بدا لي في تلك اللحظة أنه لو قام فسوف يكون مثل جلباب بلا جسد.

أمام البيت رصوا كراسي مُبطنة بقماش أحمر. أمي تقف هناك إلى جانب مدخل البيت وتوجه النساء. صوتُ الصعود والهبوط لا ينتهي. صمتُ الصالة معبأ، منتفخ، على وشك التكَسر. عندما تصدر صرخة عنيفة أظن أن الصمت سيتكَسر ويتحول إلى شظايا، لكن ذلك لم يحدث، ومع ذلك لم يفارقني حسي بأن ذلك الصباح من زجاج.

كنت جالسا على مقعد بالقرب من باب غرفة عمتي سعاد. أترجم الأصوات التي تأتي من مدخل البيتِ حسب معرفتي بالنساء. هذه "أم حماصة" قريبة "أم سعد"، هذا صوت "الست تفيدة"، هذه زوجة البقال، هذه قريبة لا أعرف مدى قرابتها. ثم جاء الصوتُ الصاخبُ لإحدى قريباتي وتلك الجملة التي أطلقتْ نظرةً لامعةً بالشرر من عيني أبي أعادت الصمت إلى الصالة: "ربنا مش هيسامحك يا صلاح". نظر أبي إليها فتوقفت.

كنت أعرف أنهم يُغَسلون عمتي سعاد. كان أمرًا غريبًا، لم يُغَسلون الميت؟ لا يمكنني أن أسأل أحدًا. شممتُ رائحة العطور التي ارتبطتْ منذ ذلك الوقت بهذا الصباح وأفسدَته. حيرتي أمام الغُسل أول انتباه على أنني لن أتمكن من فهم طريقتهم في الحياة. الغُسل، كان أهم من الموت في تلك اللحظة. اعتبرتُ الموت فكرة مسلمًا بها؛ فهو نومٌ ثقيلٌ لا يمكنك الاستيقاظ منه. أمَّا لماذا يحممون شخصًا نائمًا؟ سيبقى أمرًا غير قابل للفهم. سيشرحُ لي "إبراهيم الألفي"، بعد ذلك بسنوات طويلة، عادات الدفن عند قدماء المصريين ولن تَقدر تلك المعلومات على محو التعجب من الطريقة التي يتعاملون بها مع جسد فارقته الحياة. سأظلُ منتبهًا إلى أنَّ هذا يحدث رغمًا عن عمتي "سعاد". لو كانت صاحية لرفضت أن يرى أحدٌ جسدَها وهي نائمة. اعتبرتُ الغُسل خيانة. وبالنسبة لعمتي سعاد، كان خيانة مضاعفة. فقد رفضت ما حدث لها أثناء الحياة، لكنها لم تستطع، رغم قوتها، أن تمنع ما حدث لجسدها بعد موتها. شعرتُ بالغربة التامة ولم أتحمل جسدي.

أخرجتُ الدراجة من جراجها تحت السلم، وانطلقت بها في شارع الجلاء الواسع. بدأتُ بسرعة متوسطة ثم زدتها بالتدريج حتى خفت الدراجة وخفَّ جسدي، وعندها شعرتُ بأنها كانت منحة. وصلت إلى كوبري فاروق. ركنتها على سياج الجسر الذي يقودُ إلى خارج المدينة، ووقفتُ أتابع الماء يسيل، لونه داكن به طيف من الخضرة، يمور ويحمل معه فرع شجرة كبير أحاطت به أعواد حطب، بعد قليل جاءت موجةٌ أخرى تحمل حزمة من حطب الذرة، وبعد قليل رأيتُ عِجلاً صغيرًا، جُثته منتفخة يدفعه الماء ببطء، تابعتُه حتى مضى بعيدًا، ووقفتُ أتابع دوامات الماء المخضر تحت الجسر.

قدتُ دراجتي عائدًا مرة أخرى إلى قلب المدينة. تركتُ خلفي كوبري القرشي. انحرفتُ يسارًا حتى وصلت محطة السكة الحديد. هناك شعرتُ بأنني ابتعدتُ ما يكفي، عندما سمعتُ صفارة القطار الصارخة، تأتي من وراء المبنى ذي القبة البيضاء. أعرف أنني أغامر عندما أجيء إلى منطقة الجامع الأحمدي. توقفتُ عند الناصية أُطل على المآذن العالية. هناك السماء قريبة جدًّا. لو أتمكن من أن أصعد حتى الشرفة الأخيرة، ربما أرى ذلك الهاجس الذي يبث القلق في قلبي. كنت على أطراف الدنيا في فضاء ميدان المحطة مثلما كنت على الكوبري، بعيدًا بما يكفي عن البيت الذي ماتت فيه عمتي سعاد.

قررتُ أن أُكمل الدائرة عائدًا إلى البيت من شارع المديرية. كانتِ الدراجةُ أداةَ الطيران الذي جربته في ذلك اليوم. في الضوءِ الباهرِ لميدان

الساعة أدركتُ مرةً أخرى فضْلَها. يمكنني أن أطير بها حتى يتلاشى كل شيء، هاربًا من البيت الذي بدا لي في ذلك اليوم كجزمة ضيقة علي أن أضع نفسي فيها مهما تقرح جسدي. عدتُ من شارع البورصة إلى شارع الجلاء. كانت الشمس تتعامد الآن على الأرض. وقفتُ بعيدًا عندما لاحظتُ الرجال يحملون النعش ويخرجون به من شارع الحلو. تابعتُ النعش فوق الأكتاف ملفوفًا بقماش أخضر، لامعًا مغمورًا بالشمس، والرجال يسيرون حوله، لا أفهم لِمَ يرافقُ كلُ هذا الحشد جسدًا راقدًا في صندوق خشبي. عندما ابتعدوا قدتُ الدراجة ببطء إلى البيت وركنتُها تحت السلم.

كان بابُ الشقة التحتانية مفتوحًا. الظُلمة موشاه بضوء الشمس الباهر في الخارج. هناك طيف من رائحة عطور. كل شيء ساكن. نظرتُ إلى السرير. كان هو الشيء الوحيد الذي يشير إلى الكائن الذي كان يتقلب عليه أمس. مرة أخرى حضرتْ بسمتها التي عذبتني طويلاً بعد ذلك؛ مثيرة ذلك السؤال الذي ظل يتردد داخلي سنوات طويلة بلا إجابة: هل عرفتْني؟

* * *

(٦)

بعد موت عمتي سعاد دَبَّتِ الخلافات في البيتِ الكبير، واضطرَّ أبي إلى أن ينفصل بتجارة خاصة به، ويبني هذا البيت المُكون من ثلاثة طوابق أمام مدرسة البنات في منطقة جديدة. المناخ هنا مختلف، يخلو من صخب العيال، وأحاديث "عم ياسين" الحلاق، والحكايات. كلُ حدثٍ في المنطقة القديمة له بريق: زواج، طهور، عراك، طلاق، بزوغ بنت جميلة، حتى أدوار الدومينو والطاولة أحداث كبيرة يمكن أن تُفتح فيها المطاوي. نشرُ الغسيل ولعبُ الأولاد يثيرُ حكايات يمكن متابعتها. هنا المكان صامت؛ فقد نُقِلْت إلى مناخ مصفى.

كل صباح أمشي وحدي بجانب سور مدرسة الأمريكان، ثم أنحرف يمينًا في شارع سعيد حتى مدرسة سعيد العريان الإعدادية. الفراغ يتمدد حولي. لم أعُدْ أملك غيرَ اجترارِ الحكايات والدوران بالدراجة حول مدرسة البنات. كنتُ مقيدًا على نحو لم أفهمه، ثم بدأتُ أثير المشاكل كأن العفاريت قد ركبتني. أفسدتُ كالون البوابة الكبيرة، وخلعتُ مفتاح النور على السلم وحطمتُ الدراجة في الحائط، ونسيتُ كراريسي

وكتبي في المدرسة، وتعاركتُ عراكًا عنيفًا كان يمنحني السكينة أحيانًا. كنت أعود إلى البيت تملأ وجهي الخرابيش، فأنالُ علقة بخرطوم الحمام. في الحقيقة كنت أملأ الفراغ الذي راح يحوم حولي بعد أن فقدتُ عالم البيت القديم.

أول حدث كبير في البيت الجديد هو ميلاد "مريم". بالطبع لم يكن له تلك النكهة التي كانت للميلاد في المنطقة القديمة، غير أنه حَمَلَ غموضَه الخاص.

كنتُ آخر أطفال العائلة، وبعدها توقفت أمي عن الإنجاب فترة طويلة، لكنها حملت فجأة أثناء الاستعداد للانتقال إلى البيت الجديد. عندما وصل الحملُ إلى نهايته كانت متعبةً. جاءت خالتي "خضرة" من بيتها الذي أصبح قريبًا من بيتنا الجديد، لتساعدها أثناء الولادة. سمعتها كثيرًا، تقول لائمةً نفسها: "كبرت على الخلفة". تواسيها خالتي قائلة: "كل ما يأتي من عند الله خير". الأحاديث المتناثرة هنا وهناك تقول إن الحمل كان "غلطة". فكرة الغلطة ظلت تسم وجود "مريم" قبل أن تولد. لكنهم غالبًا ما يجدون جوانب طيبة في كل ما هو متعبٌ للقلب. ما إن يسمع أحد كلمة "الغلطة" تطل من فم أمي، حتى تتواتر التمنيات؛ فهذه البنت ستكون وش السعد بسبب هذا الميلاد غير المتوقع في بيت جديد.

تعززت الغلطة بعد الميلاد، كأنها ترتيب يجب قبوله. ترتيب من أعلى وأي اعتراض عليه ستكون عاقبته مصائب. ظهر الأمر بعد ميلاد

مريم مباشرة عندما قالت أم سعد هامسة: "يا ربي دي الخالق الناطق سعاد". لقد بدا لبعض من زار أمي من الأقارب والجيران في المنطقة القديمة كأن "سعاد" قد بُعِثت في صورة "مريم". الجرحُ الذي فتتَ العائلة التي لم يُفتتها اختفاء "مندور البري"، لم يُدفن مع سعاد، بل بُعِثَ نفسه في صورة مولود في البيت الجديد، وإن كان أبي قد ابتعد مكتفيًا بنصيب هامشي مما حدث لعمتي راغبًا أن ينسى الأمر، فقد جاءت "مريم" لكي تقول شيئًا آخر.

أحببتُ وجود "مريم" الذي هزَّ ركودَ العزلة في المنطقة الجديدة. بدأ البيتُ يتوتر كلما ذُكِرَ ذلك الشبه بين "مريم" وعمتي "سعاد"، فقد شخط أبي ذات يوم في إحدى قريباته: "اسكتي يا ولية وبطلي تخريف"، فلم يُذكر هذا الشبه بعد ذلك إلا سرًا، أو عندما بدأت ملامح مريم تتحدد ولا تملك إحدى النساء إلا أن تتعجب من الشبه.

بعد فترة قصيرة من انتقالنا إلى البيت الجديد، أنهى "حسن" خدمته العسكرية وبدأ ينزل الشغل مع أبيه. لقد تناسى البيت الأمر وغَرِقَ في حوادث جديدة. أصبح البحثُ عن عروس لحسن موضوعَ الأحاديث والزيارات، ورغم ذلك فقد بَقِيَ المكان صامتًا فاقدًا لحس البيت. لم أشعر أبدًا به كبيت. البيوت التي عرفتها كانت في الحارة، أما هنا فهو نوع من الإقامة، ربما من الأصل لم يكن لي سكن في البيوت، فقد كان بيتي هو الأحاديث والتفاصيل التي تجذبني إلى شيء غامض لم أتعرف عليه في ذلك الوقت. طول النهار يذاكر "محسن" دروس الطب في غرفته

كأنه غير موجود. أقضى وقتًا طويلاً مع أمي ومريم وأم سعد. كان الاستعداد لزواج "حسن" حماسيًّا، وغَرِقَ البيتُ في صخب العُرس. نسيتُ نفسي في هذا الصيف الذي خَفَّتْ فيه قبضةُ أمي وأبي عن متابعتي بسبب الانشغال بزواج "حسن" ثم بمتابعة صفات زوجته، وطريقتِها في الحياة، غَرِقتُ مرةً أخرى في عُزلتي وعندما بدأتْ بوادرُ الحمل على زوجة "حسن" بدا كأن حياةً أخرى تؤسس نفسها في البيت وكنتُ وحدي أبتعد.



(٧)

انتهت الحرب، وأصبحت السماء خالية من الصخب. أحيانًا تتحرك طائرة، لا تحمل حس الخطر القديم، كأنها في نزهة، لكن السماء لم ترجع كما كانت؛ ظلت مكانًا مثيرًا للقلق. في المغرب أسمَعُهم يبحثون عني. أكون راقدًا على سور السطوح العريض مواجهًا السماء، متخيلاً أنني بمنظار يمكن أن أرى النجوم بطريقة أوضح، وأتخيل كيف يمكنني أن أحصل عليه. كان فاتنًا أن يختصرَ المرءُ مسافةً بعيدةً ويصل نفسه بالسماء، أن يسافر عبر عينيه إلى النجوم البعيدة. منذ ذلك الوقت سعيتُ للحصول على منظار. سألتُ مدرسَ العلوم فقال لي لكي ترى النجوم لا بد من تليسكوب وهو لا يُباع في محلات المدينة. ذات يوم حدَثتْ نقلة لم تخطر على بالي. يبدو أنني عندما كنت أفكر في اقتناء المنظار كنتُ، في الحقيقة، أفكر في السرقة دون أن أدري. كان يومًا غريبًا سرقتُ فيه ثلاثين جنيهًا من حقيبة "حسن".

السرقة لها فتنة مثل الطيران. كان من المهم أن أجرب المحرمات حتى أفهم المعنى الذي يخفى على من يعيشون تلك الحياة. كان لا بد أن أعرف كل هذا حتى أتمكن من أن أكون ما أنا عليه، أُخرج لهم لساني،

وأُدبر أمرَ الطيران، حتى في تلك الغرفة التي حبسوني فيها.

كان المنظارُ هو الأساس ولكن السرقة وجدْتُها أكثر فتنة. كنتُ عائدًا من المدرسة. ألقيتُ حقيبتي على ترابيزة السفرة الكبيرة في مدخل الشقة. كان بابُ غرفة الجلوس مفتوحًا، والضوء يغمر الكراسي. رأيتُ بوضوح وبحس بالسكينة أنها لحظة مُعدَّة من أجلي. حقيبة جلد بنية اللون متوسطة الحجم موضوعة على الترابيزة الصغيرة في منتصف الغرفة. انتبهتُ إلى صوت حسن يأتي من غرفة النوم الكبيرة، يتحدثُ مع أمي حديثًا منتظمًا كأنه إفضاء بِسر. من نبرة الصوت مستقيم النغمة خمنتُ أنه حديثٌ طويلٌ سيستمرُ عدة دقائق. لحظة صمت كثيفة استغرَقَتْها رؤيةُ الحقيبة وحسابُ نغمة صوت أمي وأخي، وصوت "مريم" في الطرقة تتحدث مع "أم سعد" المشغولة بإعداد الطعام، هيأت القرارَ الحاسمَ بالتقدم، الذي لم يستغرق غيرَ وقت الحساب. فتبعتُ الفتنة. وجدتُ في الحقيبة عدة رُزم من النقود. أخذتُ من كل رزمة ورقة، وتوجهتُ إلى غرفتي وأخفيتُ الغنيمة في مكان سري في فتحة صغيرة في مرتبة السرير.

أفقت على نفسي. أشعرُ بوضوحٍ في الرؤية وحِدَّة في الحواس. علمتني لحظةُ السرقة ما في المرء من قدرات تخفى عليه. تلك الفتنة التي لم تستغرق غيرَ لمحِ البصر هي لحظة صافية مُركزة كأنها عُصارة حياة كاملة، لا مجال لفهم عُمق تلك اللحظة التي مددتُ فيها يدي وأخذتُ النقود ببطء وحس بالثقة. رقدتُ على السرير وقد اكتشفتُ ما فعلْته

واعتراني خليطٌ من الدهشة والخوف وبعض الندم، ثم راحَ الخوفُ يشد عوده عندما فكرتُ في ما سأفعل إن اكتشفوا الأمر. بعد لحظات كنتُ غارقًا في نومٍ ثقيلٍ عميق، لم أشعر بنفسي إلا عندما سمعتُ أمي تناديني.

لن أنسى لحظةَ اليقظة بعد السرقة. لحظة صافية، كل صوت فيها مجسم، يرن كأنه معدن. كل صورة نقية الوضوح. ضوءُ النهار يتلاشى من بلكونة غرفتي. السرير المقابل لسريري خال تطوله بقعة من ضوء الشمس، بقعة مثل برتقالة مضيئة، مُجسدة من نور كامل. اللحظة غريبة كأن حواسي أخذت سمة أخرى. بدا المشهد كأنه في مكان آخر، ربما ما زلت أحلم. في حياتي لم أر الضوء على هذه الدرجة من الصفاء، ومنذ ذلك الوقت اِعتبرتُه سرًا. كل علوم الفيزياء غيرُ قادرةٍ على فهمه، مهما تعمقت في دراسة الموجات الضوئية وتكسرها وسرعتها وغيرها من تلك الحكايات التي لا تكشف سر النور. رأيتُ حقيقةَ الضوء في لمحة، ربما لأنني فارقتُ العالم بسبب السرقة وأصبحتُ في عالمٍ آخر. ربما نقلتني السرقة إلى مسار آخر فرأيتُ الضوءَ والشرفةَ وصوتَ أمي من زاوية أخرى.

خسارة؛ تلاشت اللحظة بسرعة ظهورها. كل ما هو حقيقي لا يترك لنا غير لمحة منه. ربما لكوننا لا نقدر على تحمله، أو غير مؤهلين له. من يُعاين تلك اللحظات تترسب في أعماقه حيرة لا تفارقه أبدًا، وتصبح لحياته حس الظل وفي أعماقه يحمل حسًا بأن الحياة ليست ما يعيشه، وأن ما يعيشه هو ستارة تغطي السر. يظل طوال رحلته يُكذِب نفسه

ويظن أنه كان طفلاً، ساذجًا، ويعتبر ما تجلى له وهمًا أو مرضًا، لكن ذلك لا يُغير من الأمر شيئًا. يظلُ حائرًا يسلكُ بطريقة تجعل من حوله يشعرون بأن في روحه لمحة من فساد.

تبددَ كلُ ذلك بسرعة الظهور، وجاءَ صوتُ أمي العادي، وحضرَ معه الرعب، كأنني عدت إلى نفسي مرةً أخرى. اندهشتُ من أنني سرقت؛ دهشة شخص يُطِلُ على سلوكِ رفيقه. لم أفهم المبررَ حتى الآن. لو كنتُ حقيقةً أرغبُ في الحصول على منظار، كان هناك عدد من البدائل، ليس من بينها هذه الرغبة المُباغِتة في السرقة، كان يمكن أن أدَّخر من مصروفي، أو أطلب سُلفة من "محسن" أو أضغط على أمي لكي تعطيني من النقود التي تدَّخرها في الدولاب. كانت صدمتي من غموض اللحظة أكبر من صدمة كوني سارقًا.

انتظرتُ ما سيحدث في المساء عندما يكتشف "حسن" ما سُرِقَ من حقيبته، ويُحَدث أبي في الأمر، وتُنصب لي جلسة المحاكمة، التي تبدأ بسماع الأقوال ثم مناقشتها وإثبات أنني مذنب، ثم صدور الحكم، وكان غالبًا الجَلد بخرطوم الحمام. لكن الغريب أن العقوبة كانت مريحة لي، فهي تخلصني أولاً بأول من الذنوب، فلم تفسد روحي غير الذنوب التي لم أنل عقابًا عليها، لم أعد أهتم بالعقوبة، ولم يعد الألم يُثير مخاوفي، كأنما لم يعد لي شعور. كنتُ بعدها أصعد إلى السطوح وأجلسُ ساكنًا أتأملُ السماء.

أثناء العشاء كنتُ منتبهًا لكل الحركات. أبي تحَدَّثَ مع "حسن" عن

ضرورة التنبيه على سائق النقل أن يذهب إلى الإسكندرية ليأتي بالبضاعة. "محسن" يأكل ببطء. سألَتْ أمي عن زوجة "حسن" التي لم تطلع اليوم للعشاء. ردَّ بعصبية: "هي حرة". "مريم" وضعت الملعقة على الترابيزة وضمت ذراعيها إلى صدرها وزمت شفتيها، نظرت أمي إليها نظرة فاحصة، فمدت يدها مرة أخرى إلى الملعقة وقربتها ببطء نحو طبق الملوخية وعلى وجهها تعبير قرف.

تلك ليلة من الليالي الصعبة في مدخل الصيف، كل لحظة فيها ثقيلة، كل حركة يتم تأويلها؛ باحثًا في ثناياها عن علامات تكشف علمهم بجريمتي حتى تبدأ المحاكمة وأنتهي من الأمر. لم يفتح أحد سيرة سرقة النقود. انتظرتُ إلى اليوم التالي. لم يتحدث أحد عن اختفاء أي نقود. انتهى الأمر. لقد أفلتُّ.

بعد عدة أيام أخرجتُ كنزي من بطن المرتبة. ثلاثون جنيهًا مبلغ كبير في منتصف السبعينيات. جلستُ على حافة السرير أفكر في الحصول على المنظار. نزلتُ في المساء مدعيًا الذهاب إلى بيت خالتي. توجهتُ إلى شارع المديرية مجازفًا أن يقابلني أحد عمال الوكالة، أو أجد "حسن" في وجهي. عثرتُ على منظار بقوة تكبير عالية في محل بنادق الرش. سألني البائع العجوز إن كنت أريد بندقية رش. كان نحيلاً، يرتدي سترة أنيقة وله صلعة خفيفة وشارب كثيف. حدثني عن أنواع البنادق، وسألني عن سر حاجتي إلى المنظار. ارتبكتُ لحظة وقلت: "لمراقبة الطيور". كانت الإجابة فورية لم أفكر فيها من قبل. طوح الرجل

رأسه كأنما يعرف أنني أكذب، وقال مبتسمًا إن أردت بندقية رش، سوف أنالها بسعر مخفض. رَغِبتُ أن أنهيَ الحوار حتى لا يسألني عن اسمي وعائلتي ويكون هناك مجال لكشف السر. خرجتُ من المحل مُسرعًا أحملُ في يدي أداة رؤيتي الجديدة.

تجولتُ في شارع المديرية، أتأملُ تنوعَ الأشياء المعروضة في الفترينات؛ عالم معقد من الأدوات، كمية كبيرة من الأقلام والمساطر والأدوات المكتبية والساعات والعِدَد. ركزتُ على أدوات النجارة، البِنَس والشواكيش والمناشير، ثم الساعات بكل أنواعها. يبدو أن يَقَظَتي في لحظة السرقة تركت لي انتباهًا حادًا. الحركات والتفاصيل التي لم أكن أعبَأ بها أصبحت تلفتُ نظري. مثلاً جلوس أمي في المغرب على الكنبة في مواجهة الشرفة المفتوحة لا تسمح لأحد أن يُضيء النور إلا بعد أن يحلَ الظلام. صمتُها وهمسُها لنفسها أحيانًا أسمعه بوضوح، غرام مريم بالمرايا منذ ذلك الوقت المبكر. شرود محسن أثناء المذاكرة يُمسك القَلَمَ مثل سيجارة. تلك الأمور التي لم أكن أعبَأ بها أصبحت في مركز تفكيري. لحظة السرقة هي لحظة يقظة منحتني حسًا أكثر حِدَّة. لم أعُدْ طفلاً منذ اللحظة التي سرقت فيها.

* * *

(٨)

عندما أظلمتِ الدنيا، تركتُ أمي جالسة على الكنبة وصعدت إلى سطح البيت. وجهتُ المنظار إلى السماء. كانت خيبتي كبيرة لم يفعل المنظار غير أن قَرَّبَ قليلاً كتلَ النجوم التي أراها بعيني المجردة. كانت السماءُ واسعة والنجومُ على غموض لا يمكن محوه. وقفتُ محبطًا أحركُ المنظار هنا وهناك، باتجاه الفصول المظلمة لمدرسة البنات، في اتجاه فروع شجر الكافور، وفوق لمعان لمبة عمود النور. قبل أن أنزل وجهتُ المنظارَ إلى نافذةٍ مفتوحة. رأيتُ امرأة تدخل المطبخ وفي يدها صينية شاي، على وجهها بسمة شاردة. كان المنظر أكثر جاذبية من منظر السماء. تَحَولَ انتباهي ورُحتُ أتابع المرأة، تقفُ أمامَ الحوض وتغسلُ الأطباق ببطء. كان ذراعها عاريًا يلمع، اِستِدَارتُه ثرية، حتى إن شهوتي- التي كانت في ذلك الوقت مجرد بخار- تحركتْ. استَغرقْتُ في المراقبة، لا أفكر إلا في الضوء الذي يغمُرُ المرأة، وحركتها في المطبخ. تلاشى كلُ شيء غيرها. انطفأ نور المطبخ فجأة فاستيقظتُ حائرًا. عرفتُ لأول مرة أن اللحظات فقاعات تنتهي بمجرد انتفاخها. الإحباط من انطفاء النور في المطبخ كشف لي ما في النهايات من حِدَّة، كأنها مقص غير مرئي يقطع

اللحظات ويفصلُها عن بعضها. لكن ذلك الاستغراق الذي تبَدَّدَ كان عميقًا وخاليًا من الحدود والزمن، فيه توحدتُ بالنور في المطبخ وتلاشى كل شيء عداه. أدركتُ ما في لحظات الاستغراق من اتساع وشمول كأنها أبدية.

وقفتُ حائرًا أفكر في المرأة تعبر الصالة وتجلس صامتة أمام التليفزيون. لم يفارقني منظر وجهها. توجهتْ فرحتي إلى المنظار. كل شيء يكمن في المنظار، العالم هناك تحت العدسة. عالمٌ سرّيٌّ لا يراه غيري. في تلك الليلة انتهت حماقة مراقبة النجوم، وبدأت فتنة مراقبة النوافذ المفتوحة. أخفيتُ المنظار في غرفة الكراكيب في نهاية السطوح، ونزلتُ متوترًا بفرحٍ سرّيّ له طعم توتر سرقة النقود.

من الصعب الإفلات من الفتنة بالبعيد والخَفيّ والسرّيّ، ربما هي شهوة ولدتُ بها. إحدى سماتي مثل بصمتي وملامحي، مَيْل لا يمكن تفسيره بحوادث حياتي؛ فلم أكن في ذلك الوقت قد جاوزت الخامسة عشر، إنها الهبات الخاصة بكل كائن تُلقى في قلبه صُدفة. شهواتٌ خاصةٌ جدًّا، لا يمكن فهمها تقودني وكل ما فعلته أنني سمحتُ لها أن تتواجد، وعِشتُ أفكاري على نحو سرّيّ، منتبهًا لما فيها من خيال، حتى وصلتُ إلى اللحظة التي بدأ الحنين فيها إلى الطيران. لم أحْك لأحد عن المنظار. قصتي التي لن يعرفها غيري، سوف أعيدها في ذهني طول حبسي حتى يأتي اليوم الذي أُحَلّق فيه فوق المدينة وفوق حياتي طائرًا إلى بعيد، بعيد من هنا، مثل "مندور البري".

السرِّيّة تجعل المباهج أكثر كثافة. ليلتي الأولى مع المنظار، ليلة بهجة وتوتر. تقلبتُ طويلاً في فراشي، أترقبُ قدومَ اليوم التالي. تخيلتُ المرأة في المطبخ عارية الكتفين تغسلُ الأطباق ببطء. لمستُ كتفها، وجلستُ على مقعدٍ خشبي هناك في أجوائها. أخيلتي حية بالتفاصيل، حاضرة بكثافة أقرب إليّ من كل ما يدور في البيت.

عاد أبي في تلك الليلة مُعكّر المزاج. هناك صراع لم أتبيَّنه إلا بعد ذلك بوقت طويل، بينه وبين عمي "صلاح" حول أحد المحلات القديمة. الصراع لا ينتهي أبدًا في تلك الأسرة. دائمًا هناك شيء يتم التصارع حوله. سيارات النقل التي تنقل البضائع من الميناء، مساحة أرض منسية في إحدى القرى، أي شيء يتم التصارع حوله. كل طرف له حق. كل طرف يملك حججًا ووثائق. مثلاً محل شارع القنطرة، كان محلاً قديمًا لبيع الخمور، صاحبه الخواجة "صمويل". كان يعرف جدي "بدوي" معرفة حميمة، يقضيان السهرات معًا وقبل أن يرجع إلى بلاده توجه إلى أبي، لأن جدي كان قد اعتزل العمل بعد أن تدهورت صحته بسبب زواجه من البنات الصغار، وطَلَبَ منه شراء المحل. أبي كما يدَّعي حَمَلَ الحِملَ كاملاً، وقال إنه أعطى الخواجة ثمن المحل من ماله الخاص. عمي صلاح يعترض بأن المال هو مال الجميع، وما دام المحل قد تم شراؤه في حياة جدي فإنه يكون ملكًا للجميع.

تلك الخلافات تكشف الحياة الصغيرة التي تدور حولها الصراعات كأنها حروب. كل حدث داخل الصراع يؤجج الحرب، ويوقظ

العداوة، وإذا استمر النزاع ولم يُحَل بسرعة فإن العداوة تتغول. المشكل أنهم إخوة مِن رَحِمٍ واحد، كل النصوص المدرسية والخُلُق العام والمواعظ الدينية، تَدَّعي أنهم أكثر رحمة ببعض، لكن الأمر لا يكون على هذا النحو. الحياة عندهم صراع أعمى. يمكن أن يبدأ الأمر بالحديث ثم العراك ثم المحاكم، وأحيانًا يصل إلى حد حرق البيوت والقتل. كل هذا من أجل قطعة صغيرة على الرصيف، رُكن في محل، غرفة سطوح في بيت قديم، كل واحد يرفع صوته قائلاً: "حقي، حقي".

لم أكن أفهم تلك الصراعات في ذلك الوقت، ثم احتقرتها عندما كبرتُ، وكل ذلك يرجع إلى علاقتي بالمنظار الذي منحني حياة أكثر كثافة من حياتهم. الغريب أنهم يمشون كالديوك منتفخين، كل واحد يمشي في حالة نصر كأن الأرض خلت من غيره. كان أبي في تلك الفترة مُرهقًا بسبب مناكفة أخيه له، وفي هذا اليوم بدا على العشاء واجمًا، وسمعته يتحدث مع "حسن" حول القضية التي رفعها أخوه بسبب محل شارع القنطرة. لم يكن الأمر يخصني، استرحتُ وتركتُهم في أوحالهم وعشتُ في أحلامي مُنتظرًا اليوم القادم.

في المساء طلعت إلى السطوح. أخرجتُ المنظار من مخبئه ورحتُ أتجولُ به. انتظرتُ أن يضيء النور في نافذة المطبخ، ولكن الليلة لم يكن هناك ضوء. رحتُ أتسلى بالتجول في الشرفات المفتوحة. رجلٌ عجوزٌ يجلسُ في شرفةٍ يدخن. رجلٌ يرتدي فانلة داخلية عابسَ الوجه يقرأ الصحيفة باستغراق. أزاحت فتاة ستارةً عن إحدى نوافذ العمارة

الجديدة على الناصية، كانت ترتدي بالطو أبيض، ربما ممرضة في عيادة طبيب. رُحتُ أتابعُها، وأفكرُ أن ملامحَها تُذكرني بشخص أعرفه. رأيتُ سيدات بملابس سوداء يدخُلنَ غرفة صالون. أُضيئت نافذةٌ في الطابق الرابع ودخلَ رجل ريفي يُعَلّق عصاتَه المُعوجة على ذراعه. رأيتُ نافذةَ المطبخ تُضاء. هذه المرة كانت المرأة تعصب جبهتها بمنديل يمتد حول رأسها، وشعرها ينسدل على ظهرها، وتبدو مهمومة. من خلال المنظار كانت قريبة مني، تقفُ على حافة السطوح، كأنها جزء من حياتي، لكن الصمت ضايقني وعرفتُ أن الكلمات والأصوات تُشيعُ مناخًا حول المرء، وتجعل الصور حقيقة. راقبتُها تُخرجُ أشياء من نملية في الحائط. راقبتُها تغلي شيئًا على البتوجاز. وتستند إلى منضدة المطبخ، وتُسوي شعرها، ثم تعدل العصابة، وتمسح بكفها على وجهها وتنظر إلى ما يغلي فوق النار.

كل تفصيلة صغيرة تبدو كأنها معجزة. كيف تتحول الحياة العادية إلى أعجوبة عندما يراقبها المرء في السر؟ هل هو فعل التلصص الذي يغدو مثيرًا مثل السرقة؟ هل فتنة المشاهد جاءت من التلصص أم من ذلك الحس الآسر بأنني انفصلتُ عن الحياة ورحتُ أراقبُها كميتٍ يراقبُ من نعشِه العبثَ الذي كان يعيش فيه؟

في ذلك الوقت البعيد كنتُ مُنحازًا إلى المتعة، مُنقادًا بفعل الإحساس دون تفكير، كانت الأمور تتم على نحو غامض ليس لي أي دخل فيه، إنما هذه أفكاري الآن، هنا، حبيسًا في غرفتي مُنتظرًا حكمَهم عليَّ بإرسالي

إلى مصحة نفسية أو بمعالجتي في البيت تحت إشراف زملاء "محسن"، ربما ينتظرون عودة "مريم" حتى يتشاوروا ويأخذوا قرارًا، لا يهم، سوف أُنفذ طيراني حتى لو كنت في سابع أرض.

راقبتُ شرفةً أخرى، فتاة تضع على كتفها فوطة وتنحني تنشر بعض الملابس الداخلية. أعدتُ المنظار إلى نافذة المطبخ، كان مظلمًا لكن نافذة الحمَّام الزجاجية أشعّت بضوء أصفر خافت. الزجاج خشن فلم أستطع الرؤية، ورغم ذلك لم أزح المنظار عن النافذة. هناك في الحمَّام يحدث سر. خسارة؛ فالحمَّام مكان أكثر خصوصية من المطبخ، وهناك يمكنني أن أرى ما لا يمكن رؤيته في الحياة العادية. الحمَّامات والغرف المغلقة هي ظهر الحياة، قفاها، الذي يجب أن يتوارى باعتباره أمر تم طرده خارج مجال النظر، وتم إخفاؤه باعتبار أن ما يحدث فيه عيب.

رحتُ أتخيل شكلَها وهي تخلعُ ملابسها قطعة قطعة ثم تقفُ تحت الدش. الماءُ يغمرُ شعرَها وينسالُ على جسدها الناعم. هناك سر في علاقة الماء بجسم الأنثى، لن يكون هذا وقت اكتشافه. جسد الأنثى والماء من نسيج واحد، فيهما نفس الليونة، نفس الأسرار في الأعماق، نفس النعومة وحرية الحركة. فُتنتُ منذ تلك الفترة بالجسد وعلاقته بالماء، ربما كان ذلك مبكرًا، إلى حدٍ ما، ولكن الأمر سار في هذا الاتجاه. ماذا أفعلُ في نفسي؟ لقد خُلقتُ هكذا، أحملُ تعلقًا بالأمور السرية، وكان عليَّ أن أحاولَ طوال عمري أن أعيشَ كما يعيشون، لكن ذلك لا يستمر طويلاً. لا بد من أن ينوء المرء بما يحمل، وفي لحظة

يحدث ما حدث عندما انفصلتُ عن كل ما حولي، وقالوا إنهم أمسكوني قبل أن أُلقي نفسي من البلكونة.

ليس الأمر كما يَدَّعون، ربما كنتُ شاردًا، لأنني لم أفكر أبدًا أن أرمي "نفسي" من البلكونة. أحبُ هذا الضوء، وهذه الحياة، وتلك الأصوات والأجساد، فكيف يمكنني أن أحرم نفسي منها بإرادتي. إنهم لا يفهمون شيئًا، والطبيب الذي يعالجني، صديق "محسن" الذي تعلم في سويسرا كما يقولون، له نفس العقلية، فلا يمكن أن يفهم غير ما درسَه. لم يفهم حالتي، فَهِم ما تقوله كتب الطب عن حالتي. لكن حالتي أمرٌ خاص، وفي اللحظة التي حَاولَ فيها أن يعالجني كان يعالجُ شبحًا في ذهنه، يعاني من أعراض موصوفة في كتب الطب، وليس الشخص الذي يجلس أمامه. إنه لا يعرفني فكيف يعالجني؟ لا يعرف ما أفكرُ فيه، ولا يحق له أن يقول عني مريضًا. ماذا تعني كلمة "مريض"؟ إن كنتُ لم أؤذ أحدًا، فكيف اكتشفوا أنني مريض؟ لمجرد الاستغراق الذي عانيته ذات يوم وأنا أتابع الهوام الصغيرة تحوم حول شجرة الكافور، وكدتُ أسقط كما قالوا، اعتبروا هذا الأمر هو المرض، واعتبروني على وشك الجنون؟ ربما أكون مجنونًا طوال الوقت، وهم لا يعرفون. إن المرض من وجهة نظرهم أن أتصرف بطريقة مخالفة للطريقة التي يتصرفون بها. ربما أكونُ مجنونًا منذ اللحظة التي سرقتُ فيها النقود ورحتُ أتابع النوافذ بالمنظار. ربما أكون مجنونًا منذ اللحظة التي ولدتُ فيها.

***

(٩)

قادني المنظارُ إلى التعلق بالسينما. كان الأمرُ مُربكًا؛ فَتِلكَ المتعة التي أعيشها عندما أحملُ المنظار وأقف في ظلمة السطوح، متحققة في السينما بشكل حي كأنني في حياة طبيعية. هناك في ظُلمة السينما، التي تشبه ظُلمة السطوح، أجلسُ ساكنًا في لحظة سِرّ. ينسالُ الناس في مُناخ فضي كأنهم في حلم. في الغالب لم أكن أشاهد الفيلم جيدًا وإن كنتُ لا أفقد القصة، يتوجه تركيزي إلى متابعة الأجساد، طريقة الحركة، والكلام وتعبيرات الوجوه. أتابعُ الممثلين الصامتين أكثر ممن يحضرون في مقدمة المشهد. لكن أجساد النساء تحظى بكامل الانتباه؛ السيقان الطويلة ذات الاستدارات المُحكمة، النهود السخية الناعمة التي ترفع صدور الفساتين، وذلك التجويف الناعم بين النهدين الذي يقودني، لأرى بعين الخيال، ما يُخفي في ظلمات الملابس.

أصعب ما في صور السينما هو طيفية الصور. النجوم السابحة في عزلتها داخل شريط السينما تُشعرُني بالعجز، فلا سبيل للوصول إليها، لأنها غير موجودة في مكانٍ آخر غير الشاشة. تسلَلَ هذا الحس أيضًا تجاه

الكائنات البشرية التي تتحرك في النوافذ تحت عدسة المنظار، ورغم أنه يمكنني أن أطرق أي باب وأعرف طرفًا من حياة الأشخاص الذين يتحركون في خيال المنظار، غير أن الأسبابَ التي تحول بيني وبينهم لها نفس غموض الحواجز التي تحول بيني وبين من يتحركون في ضوء شريط السينما.

في المدرسة الثانوية تطورَ الأمرُ، وراحَ الجسدُ يشتاق. واظبتُ في تلك الفترة على الذهاب كل يوم إلى بيت خالتي مُدعيًّا المذاكرة هناك، لأكون بقرب "سومة"، التي منحتني تجسيدًا لولاه لتلاشيت مبكرًا، ومع ذلك استمرت متعة التلصص.

في المساء أطلع إلى السطح، وأوجه المنظار نحو العمارات العالية البعيدة. كل يوم أكتشف منطقة جديدة، لكن المرأة في نافذة المطبخ ظلت تجذبني لمتابعتها. تقريبًا تعلقتُ بها وحددتُ بيتها أثناء عودتي من المدرسة. كل يوم أمرُ من أمام البوابة المواربة غيرَ قادرٍ على التوفيق بين البيت وبين الصورة التي تظهر في النافذة تحت عدسة المنظار.

ذات يوم قررتُ أن أطرق بابها. حضرتْ اللحظة الباردة التي قادتني يوم السرقة. بنفس الطريقة تقريبًا؛ ما إن هلت الفكرة حتى حملت معها قوة تنفيذها، كأنها ليست خيالاً مثل باقي الأفكار، بل كائنًا له قوة الدفع. اعتراني نفس البرود، ومُحيَّ كلُ تفكيرٍ، غيرَ نقطةٍ لامعةٍ توجهتُ إليها دون تفكير.

عبرتُ البابَ الحديدي المفتوح. كان السلم ممسوحًا وضوء منتصف

النهار مصفى وساكن. سمعتُ حفيفَ حذائي يلاحقني. كانت تلك الصورة كفيلة بإعادتي إلى اليقظة، لكنها تلاشت أمام قوة البريق الجاذب. لا أعرف ماذا أفعل، ولا ماذا أقول لها، لم يكن هذا مُهمًا. الجسد يتحرك وحده مدفوعًا بناره الداخلية. توقفتُ في الطابق الثالث. الباب بمصراعين، زجاجه خشن، وحديد الشراعة مربعات متداخلة. امتدت يدي وضغطتُ زر الجرس. امتد صوتُه هسيسًا معدنيًّا في فضاء. رأيتُ ظلاً على شراعة الباب. ابتعد الظلُ ثم عاد. فُتح مصراع الزجاج وأطل وجه من خلف مربعات الحديد؛ عيون سوداء داكنة حادة النظرة.

لم يكن للوجه نفس السمة تحت عدسة المنظار رغم تعرفي على الملامح. شممتُ رائحة صابون الشمس الذي تستعمله "أم سعد" في غسل الملاءات، وحس الملاسة والعبوس لأيام الجُمع، ازدادت العيون اتساعًا وسوادًا. قلتُ بثبات:

"شقة الست نادية الخياطة؟".

انتظر الوجه لحظة يتفرس في ملامحي، وأخيرًا ظهر طيف اطمئنان:

"نادية الخياطة في العمارة المجاورة".

الصوت به رنة معدنية لا تتوافق مع الملامح. ابتسمتُ معتذرًا، ووقفتُ لحظة منتظرًا. لم ترد البسمة، وظَلت جامدة تحاول أن تبدد شكوكها. شكرتُها واستدرتُ نازلاً السلالم ببطء.

رحلة النزول والإفاقة فيها نوع من الإثارة مغاير، تأمُّل ويقظة وحس خفي بالنصر. مشيتُ على مهل فوق رصيف ضيق تنمو الحشائش بين

بلاطه وتغمرُه شمسُ منتصف النهار باتجاه البيت غائبًا تقريبًا، تُعيدُ التجربة نفسها في جسدي. كنتُ أشاهد تشكُّل كائنٍ آخر في كياني، لم أعرف بوجوده إلا بعد ذلك بسنوات طوِيلة عندما أطلَقَ صيحة الغراب من بلكونة بيت خالتي.

أصبحتُ أسير تجربة الاختلاس. تعلمتُ كيف أُبصرُ ما في حركات الناس من تنوع، وكيف أقرأ تفاصيل هينة لا تشاهدها غير العين المدربة. كان جسدي الذي أيقَظَته "سومة" قد بدأ ينجذب إلى المناخ المُشع المحيط بالبنات في الصباح، لكن علاقتي بالمنظار كادت أن تُفسدَ متعتي، فما إن أدقق النظر في بنت، حتى ترفع عينيها باتجاهي. حدثَ ذلك عدة مرات حتى عرفتُ أن نظرتي لها حضور جسدي. كان ذلك يهددُ التلصص، لكنه من جهة أخرى منحني فرحَ اكتشاف امتلاكي لقدرات غير عادية.

في الصباح تتوافد البنات من شارع الحلو باتجاه المدرسة، أنزلُ مبكرًا وأقفُ على الناصية، اللحظة الساحرة التي لا يدركها زملائي الذين يقفون على الناصية يصيحون ويعاكسون بصخب. وحدي أقف، بعيدًا عن الأنظار. أتابع الحركات الهينة، أتأمل الضفائر وحركة السيقان وطريقة ضم الحقائب المدرسية إلى الصدر. في تلك اللحظات أدركُ الثروة الهائلة من التنوع في الملامح والسمات، تكشفها البسمات الباهتة أو التكشيرات المحددة للأنف والجبهة، وأنواع تسريحات الشعر ومدى ارتفاع النهود واستدارتها. ثروة لا يمكن أن أحيط بها. أظلُ في مكاني حتى

يرن جرس المدرسة وأسمع صيحات مُدرسات الألعاب ينادين على المتلكأت ويهددن من تقف على الرصيف باستدعاء ولي الأمر ، وعندما ينغلق الباب تكون الحصة الأولى من المتعة قد انتهت، أتوجه إلى شارع سعيد، أعبرُ الميدان وأقابل "مجدي المغربي".



(١٠)

يعيش "مجدي المغربي" في بيت من طابقين بالقرب من مدرسة الإمبابي الابتدائية برفقة أمه وأخته. يُعِدُ نفسه لكي يكون ممثلاً. كل يوم في العصر يذهب إلى الاستاد الرياضي يمارس الجري ويتدرب على رفع الأثقال. أبديتُ ذات يوم دهشتي من تعلقه بالرياضة. أجابَ بجملة ظلت مضرَبَ المثل بيننا: "أداة الممثل جسده كالأذن للموسيقى والعين للرسام".

في تلك الفترة رافقني في دخول السينما في الفترة الصباحية، مُفَضِّلاً الأفلام الأجنبية ساخرًا من حبي للأفلام العربية. كان مُغرمًا بـ"جون ترافولتا"، يُقلده ويحفظ ألحان أغانيه وكلماتها حتى أصبح مشهورًا في المدينة، وطَلَبَ منه بعض الأقارب أن يرقص ويغني في الأفراح، تلك الأغاني التي هبطت من الشاشة وغمرت "كازينو البروفاج" ونادي المعلمين بسحر الأفلام الأجنبية. كانت ذروة تلك الحماسة عرضًا خاصًا على سلالم مسرح المدينة، أمام جَمْع من زملائنا في المدرسة، تركَ "مجدي" منبهرًا بأنه قادرٌ على إثارة الحماسة التي يثيرها فيه "جون ترافولتا"، واعتبرَ ذلك دليلاً على اقترابه من حلمه.

انضم إلينا، في الثانوية العامة، "إبراهيم الألفي" أشطر طلاب المدرسة وقائد طابور الصباح. الصوت الغني بالنبرات الخشنة التي تُلقي البيانات العسكرية. كان مُغرمًا بالبطولة، بالمفارق، بالترينسندنتال كما سيقول بعد ذلك بطريقته الفخمة عندما ندرس الفلسفة. ولأنه أحبَّ تفرده فقدْ غيَّر طريقة إلقاء خُطب الصباح في الطابور حتى لا يتشابه صوته مع صوت مذيع شهير في إذاعة صوت العرب. كان بارعًا في الأمور الذهنية. يهزمُنا في الشطرنج، ويحفظ الكلمات الإنجليزية بسرعة. ينظر إلى صفحة في أي كتاب ثم يُلقيه على منضدة غرفة الجلوس في بيت خالتي التي اتخذناها مكانًا للمذاكرة في الثانوية العامة، ويسردُ ما في الصفحة من معلومات بالترتيب، سواء كان ذلك في التاريخ أو الجغرافيا أو أي مادة. كان يفعل ذلك بطريقة تُثير فينا الإعجاب، ويبتسم وهو يمسح بأنامله الشعيرات التي ستصبح بعد سنوات "شاربًا صدّاميًّا".

أثار استغرابَنا إصرارُه أن يدخل القسم الأدبي مع أن بإمكانه بسهولة أن يدرس في القسم العلمي، أما الأمر الذي كان أكثر غرابة فهو أن يترك طابور الصباح وينضم إلينا في الهروب من المدرسة ودخول السينما في الفترة الصباحية.

يشير "مجدي" بإصبعه إلى مكان الساعة في معصمه، عندما يراني قادمًا من شارع "حسن رضوان". أقول له إنني كنت أتناول جرعة الصباح من المتعة. يبتسم قائلاً: "سوف تتلاشى". نسير في شارع سعيد باتجاه الورش

التي تتوارى وتحل مكانها محلات قطع غيار السيارات. "إبراهيم الألفي" يقف على الناصية، يقابلنا قبل أن نبدأ في فضيحته بالصفير المميز الذي ابتكرناه كأداة للنداء. نتوجه إلى السينما. يختار أفلامه وأختار أفلامي. "إبراهيم" يختار ما يشاء، يمكن أن يرافقني في مشاهدة فيلم عربي أو ينضم إلى "مجدي" حسب مزاجه وسِجِل الأفكار التي يناقشها. تنتهي الحفلة الصباحية في الواحدة ظهرًا. نلتقي في ميدان الساعة على بوابة سينما أمير، ونعود كأننا كنا في المدرسة.

في الليل نلتقي في بيت خالتي. نقضي أغلب الوقت في مشاهدة "مجدي المغربي" يُعيد المشاهد الدرامية من الفيلم. أحيانًا يتدرب على رقص "جون ترافولتا". كان يحب الشاشة لأنها مدرسته التي يتعلم فيها كيف يقف أمام الكاميرا، كيف يتخلص من ذاته ويسكُن بشرًا آخرين هم أبطاله الذين يجب أن يكونهم. بالنسبة إليّ كانت السينما نوعًا من البحث في تنوع أجساد النساء. لم تكن الأمور واضحة على هذا النحو في تلك الفترة. في الظلمة أمام سيل المشاهد، امتلكتُ حرية أن أتأمل وأراقب، مارستُ تدريبًا مكثفًا، ساعدني على التقاط اللمحات التي سقطت عفوًا أثناء التمثيل، عن الطابع الشخصي الذي نَسِيَت الممثلة إخفاءه. كنتُ أبحث عما سقط من تلك المرأة الحقيقية خلف الشخصية المزيفة التي تُمَثلُها. لم أتماهى أبدًا مع شخصيات الشاشة، وإن كانت القصة لا تغيب أثناء بحثي عن النساء وطبائعهن، فقد كنتُ قادرًا ببساطة على اكتشاف الثغرات غير المعقولة في الأفلام، أختزنُها لتكون مادة الضحك في الليل.

تطورت حاستي في المراقبة وأصبحتُ قادرًا على فهم لغة الجسد، ربما كانت أوهامي التي تُصورُ لي ذلك، ربما كنتُ مريضًا منذ زمن بعيد، مرضًا خبيثًا، سرّيًا، لم تكتشفه أسرتي التي كانت مشغولة بتطوير محلات العطارة. كنتُ مستغرقًا في مُتعي، أدرسُ الضروري الذي لا يفضحُ أمري ويسمحُ لي بالمرور من صف إلى آخر، وأستثمر باقي الوقت في مُتعي.

لم أستطع أن أطور مهارة الرسم، كان الأمرُ عصيًّا لأن تعليم الرسم رديء في المدارس. ولم يكن هناك ما يمكن عمله غير محاولات بائسة عندما تستبد بي صورة امرأة أريد أن أجسدها على الورق. كانت مشكلة "التجسد" مهمة فلا يمكن أن يظل الأمر مجرد صور طائرة وأفكار، وكانت سومة هي الكائن الذي وقع عليه إحياء رغبة التجسيد، التي كانت تشتد كلما زاد الخيال قوة، وأصبح قريبًا من الواقع، في تلك اللحظة تطلبُ الصورة الخيالية أن تتجسد، ولم أجد غير سومة التي كنت أندس في حضنها في مطبخ خالتي.

ذات يوم قمتُ مبكرًا كالمعتاد. خرجتُ إلى الطريق ووقفتُ مكاني أمام مدرسة البنات، ثم توجهت إلى السينما. كنتُ مستغرقًا كالعادة في مشاهدة الفيلم عندما توقف العرض فجأة. نادى شخص من جانب غرفة العرض على اسمي. كنتُ شاردًا مندهشًا أن يتردد اسمي في صالة السينما في الوقت الذي كنتُ أظن نفسي مختفيًا تمامًا. في المرة الثالثة للنداء تأكدتُ أنه يخصني. وقفتُ أنظر إلى أعلى. رأيتُ يدًا تشير إليّ،

والهيئة تُشبه هيئة "حسن".

كيف عرفَ أنني في السينما؟ ولماذا أوقف عرض الفيلم حتى يطلبني؟ تحركتُ بسرعة إلى ردهة السينما، وعندما وصلتُ إلى السلم المؤدي إلى الخارج أدركتُ أن حسن مضطربٌ، لا يفكر في هروبي من المدرسة. قال بصوت خافت وبحسم: "تعال".

خرجنا إلى ضوء النهار الباهت لذلك اليوم من أيام مارس. عبرنا ميدان الساعة حتى الرصيف المقابل. ظهرَ الواقع الصلب الذي يسمونه "الحياة الحقيقية" في مقابل ما كنت أعيش فيه باعتباره "الخيال". كان له وقع ثقيل ومُنفر. كانت الحركة في الميدان هينة في هذا الوقت من الصباح. ركبتُ بجواره السيارة صامتًا. لم أستطع أن أسأل عن السبب الذي دعاه أن يبحث عني ويوقف عرض السينما.

الصمت ملاذٌ آمن، مساحة يُمْكن للمرء الاختباء فيها. كنت أفضلُ أن أترك للآخرين الحديث، وأبقى صامتًا أتركُ للحوادث حرية الوجود. وصلنا إلى البيت. صعدنا صامتين إلى الشقة. بمجرد أن دخلت البيت عرفتُ ما حدث. كانت أمي ترتدي جلبابًا أسود، وتجلس على الأرض أمام باب غرفة النوم الكبيرة، عندما رأتنا قالت صارخة: "الروح طلعت".

سيظل هذا المشهد معقدًا، لأن اللحظة التي استدار فيها "حسن"، بشكل مفاجئ، وصفعني على وجهي، غامضة؛ فجوة في حوادث ذلك اليوم، مقطوعة الصلة بكل ما سبق. صفعة ثقيلة كأنها صرخة حطت

على وجهي. اندفع إلى غرفة أبي، وبعد لحظات سمعت بكاءه الخشن الأجش، حتى إنني نسيت الصفعة ونسيت أنني أقف وسط الصالة بلا معنى. ما ظل يحيرني أنني لم أتحرك وكل انتباهي تركز على كلمة "الروح طلعت" التي راحت تحوم في ذهني وتعيد نفسها بقوة لها نفس المباغتة التي أثارتها في المرة الأولى. لم يحركني بكاء حسن، لم أجد في كياني أي شيء. كان الأمر غريبًا أنني خال من المشاعر. الأحداث تنزلق داخلي على سطح أملس. لم أكن جزءًا من هذا الحزن غير أنني لم أكن أيضًا منفصلاً عنه. كنت متألمًا، مندهشًا من طبيعتي، كأنني مخلوق غريب هبط أرضًا غريبة.

استمر العزاء ثلاثة أيام. كانت مناسبة للتأمل. القصة أن أبي عندما تعب في ذلك الصباح بعد أن وصل إلى المحل، نقله "حسن" بسرعة إلى البيت. عاد "محسن" من المستشفى، واطمأن عليه، وقال إن الأزمة عابرة. ركن أبي جسده على ظهر السرير وطلب أن يراني. كان الأمر غريبًا أن يطلب أبي رؤيتي، وهو لم يتحدث معي على انفراد مرة واحدة. ظل البيت لفترة طويلة مندهشًا من أن الطلب الوحيد له قبل رحيله هو رؤيتي، وعندما نزل "حسن" ليبحث عني، أرشده أحد الإداريين في المدرسة أنني لا أحضر غير يوم أو يومين في الأسبوع وأنه يمكن أن يجدني في السينما.

تلك هي قصة ذلك الصباح الذي تلقيت فيه صفعة تشير إلى مساهمتي في موت أبي. البحث عن كبش فداء لهذا الموت المباغت وقع

على كاهلي، ورغم أنني لم أصدق الأسطورة، وأن البيت حاول التخلص منها بتذكر أنه طلب رؤيتي قبل موته، غير أن ذنبًا غامضًا ظل معلقًا فوق رأسي. ربما أكون سبب موته. لو كنت متواجدًا لساعدت في شيء، ربما لو لم يتركه "حسن" ويبحث عني لَما مات. كان منبع الذنب أنني لم أكن متواجدًا، وليس أنني سبب موته.

***

(١١)

جاءت "سومة" لتعيش في شقة خالتي عندما كانت في التاسعة، في الفترة التي أعقبت موت زوج خالتي المفاجئ في نهاية الستينيات. كانت خالتي تجهز نفسها لحياة طويلة مع زوجها وابن عمها في شقتها المطلة على ميدان شارع بطرس. ترفض كل حديث من أقاربها عن الإنجاب. رفضت نصائح أمي لزيارة طبيب، شاعرة أن ذلك يجرح زوجها الذي كان نوارة العائلة، يكفي نبوغه ومنصبة الكبير في بنك مصر. رفضت الأحجبة وزيارة المشايخ مفوضة أمرها لله؛ إن أراد فسوف يحدث. ظلت تعيش منتظرة أي شيء غير الموت، حتى حدث، فارتبكت حياتها، وقضت في البلد فترة لا تدري ماذا تفعل، ثم عادت من هناك بصحبة "سومة"، التي أوصت بها إحدى القريباب:

"بنت صغيرة تونسك".

أشاعت "سومة" البهجة في بيت خالتي. في الأيام الأولى زارتنا مقام السيد البدوي، وهناك شهقت وقبّلت يد خالتي قائلة: "يا خالة خضرة، اتكتب لي على إيدك، عمر جديد". اشترت خالتي لها ملابس ومناديل

للرأس، استعملتها سومة في البداية قبل أن تتركها في الدولاب وتمشط شعرها أولاً على شكل ضفيرة، ثم تتركه ينسدل طويلاً غزيرًا كثيف السواد، حتى تضطرها خالتي، إلى أن تربطه بتوكة أو تلمه على شكل كعكة. اشترت لها حذاء بكعب متوسط، مثل حذاء تلميذات المدارس، ومرآة صغيرة دائرية بيد طويلة من الخشب، اعتبرتها سومة أهم ما حدث لها؛ أهم من انتقالها للعيش في المدينة.

لم تكف "سومة" عن إثارة دهشتي. في الفترة الأولى عندما كنا أطفالاً كانت منبهرة بكل ما في المدينة، وكان موضوع المرآة بالنسبة لها أمرًا يفوق التصور. قالت لي وهي تريني المرآة سرًا: "عمري ما بصيت في مراية، كنت بشوف وشي في مية الترعة أو في قعر الحلة". لم أصدق أن هناك من يعيش دون أن يعرف ملامحه، فحكت لي أن الكثير من الدور في البلد، خالية من المرايا. بنت عمتها من حبها لشكلها ثبتت قطعة زجاج في الحائط بالطين وأصبحت مزار البنات، يلمحن وجوههن داخل عتمة تشبه عتمة المغرب. سرقت إحداهن مراية "المزين" ذات يوم، فتخاطفتها البنات متعجلات حتى تتمكن كل واحدة من التأمل في ملامحها وحفظها قبل أن يكتشف "المزين" ضياع مرآته.

قالت "سومة": "الواحد بينسى نفسه، لازم المراية تفكره". ثم حكت لي أنها لم تر شكلها بالكامل، لم تكن تعرف غير ظلها على الأرض. ذات يوم ذهبت لكي ترص أقراص "الجلّة" عند الفرن في دار "محمد أفندي". يومها رأت غرفة النوم مفتوحة. دخلت مدفوعة بإغواء مرآة

بطول مصراع الدولاب، ورأت نفسها بالكامل بالجلباب الطويل والمنديل الأزرق المحبوك على جبهتها. يومها اندهشت من ذلك المخلوق الذي يطل عليها كأنه طيف يعيش معها أكثر منه نفسها التي تعرفها.

ساعد الصخب الذي أثارته سومة، خالتي على تحمل حياتها. كانت تحب تعليقاتها وتضحك من حكاياتها حتى تلمع عيناها الزرقاوتين وتتندى وتقول في كل مرة: "الله يخرب عقلك يا بت ياسومة". في تلك الفترة بدأت تُعلمها القراءة والكتابة، كل يوم ساعة بعد صلاة المغرب. وفي اليوم الذي استطاعت "سومة" تهجئة عنوان جريدة الأهرام، برقت عيناها وضحكت حتى ظهرت غمازات الخدين واحتضنت خالتي وظلت تُقبّل رأسها، غير مصدقة أنها تقرأ الجريدة وأنها هي نفسها "سومة" التي كانت تصنع أقراص الروث في البلد.

بمرور الوقت أصبح الخط الثقيل بين الحياتين كثيفًا، حتى صدّقَت أن "سومة" التي عاشت في البلد غير "سومة" التي تعيش في المدينة، ولم تعد قادرة على فهم أن من كانت تمشي على السكك تجمع الروث الذي يسقط من مؤخرات البهائم وتعجنه بالتبن والقش وتصنع منه أقراصًا، تنشره في الشمس حتى ينشف ثم تبيعه في السوق، هي نفسها البنت التي تنزل إلى "سوق شوقي" تثير حولها كل هذا الصخب من التعليقات، بعد أن استدار جسدها وتحددت قسماته داخل فساتين محبوكة على الصدر، ضيقة من الوسط، تبرز نسبًا نموذجية في الردفين واستدارة الصدر والمؤخرة.

حفظت سومة أغاني وردة الجزائرية وغنتها بصوت رنان وهي تغسل المواعين. كانت تعيد اللحن نقيًّا، له طابع خاص، حتى إن "مجدي المَغربي" قال لي ذات يوم: "لا تستبعد أن ترى سومة ذات يوم نجمة من نجوم الشاشة". كان الأهم من الإثارة التي بعثها جسد "سومة"، البهجة التي نشرتها روحها الخفيفة التي لا تعبأ بالهموم. كانت تمازح كل من تقابله ابتداءً من موظف الجمعية التعاونية على ناصية شارع المتحف، حتى صاحب المكتبة العجوز ذي الشارب الكثيف في ميدان شارع الحلو. كانت البهجة تسير معها أينما مضت، لكن عندما تعود من السوق حاملة حاجات البيت، توقف أغانيها عند الباب وتعدل ملابسها قبل أن تدخل الشقة، وتستعيد جدية تناسب صمت الست "خضرة" وحزنها الذي لا يبلى.

قبل موت أبي اعتدت أن أمر على بيت خالتي عدة مرات في الأسبوع، وأحيانًا أقضي يوم الجمعة بالكامل، مقتربًا من وجود "سومة" قدر الإمكان. سمحت لي أحيانًا أن ألعب معها. عرفت منذ ذلك الوقت المبكر لدونة الجسد ودفئه، وتفككه الذي يشبه انسيال الرمل، جربت متعة كثيفة مختلفة عن اللذة الخيالية للعادة السرية. العادة السرية خيال مثل المنظار والسينما، أما اللعب مع سومة ففيه سحر لا يمكن مقاومته، صحيح أنها لم تعطني في ذلك الوقت المبكر من اللذة إلاَّ القليل، لم تعطني غير تلامس خارجي، لكن ألعابها ظلت لها سحر خاص.

بعد موت أبي تحمست خالتي لرغبتي أن أقيم في شقتها إقامة كاملة ووقفت في وجه "حسن" قائلة: "اتركه براحته يا أخي، أنت مستكتر عليّ الونس". كان ونس خالتي من اختصاصنا، كل واحد يشعر بمسؤولية تجاه تقديم ما يشعرها بأنها لا تعيش وحدها. حملت كتبي وملابسي واتخذت من غرفة الجلوس الواسعة التي يفتح بابها على السلم مباشرة مكانًا للإقامة طوال النهار. ظننت أن الحياة عادت إلى مسارها الطبيعي عندما بدأت أستعد لامتحان الثانوية العامة، لم يكن الأمر على هذا النحو، فقد فقدت فجأة حسي بالكلمات. لم يبق منها شيء في ذهني. في ليالي إبريل ومايو أفتح الكتب، محاولاً أن أقرأ. لا أتمكن من ذلك كأني لم أتعلم القراءة. خالتي تعد لي الشاي أو ترسل "سومة" بالسندويتشات، وتظل تحوم في البيت بعد مسلسل الثامنة، حتى العاشرة. توصي سومة بما يجب أن تقوم به في الصباح ثم تدخل غرفتها تقرأ "وِرْد" ما قبل النوم. وأسمع صوت غسل الأواني في المطبخ، وسومة تدندن بصوت خافت.

كلما رجعت إلى بيت أبي تذكرت كلمة أمي: "الروح طلعت"، وتعود الدهشة التي تشبه شهقة لا تنتهي. حاولت أن أوقف البياض الذي يجتاح ذهني أمام الصفحات المشغولة بالكلمات، أنظر إلى الخرائط ومربع أرسطو بشيء من التعجب. الكتب والقصائد وأحداث التاريخ أصبحت بلا معنى، هلام من الأشكال المرسومة على صفحات بيضاء.

لم أنجح في الثانوية العامة في ذلك العام، "إبراهيم الألفي" هو الذي

نجح، وبدا نادمًا على أنه فارق الأجواء التي حررته من التزمت مثلما قال بطريقته الفخمة. أعدت السنة مع "مجدى المغربي". في ذلك العام لم أذهب إلى المدرسة بشكل رسمي وعاصرت الصباحات والأمسيات وتبدلات الجو، بحس النائم. أجبرتني بعض الدروس الخصوصية في اللغة الإنجليزية والفرنسية على النزول من البيت، لكي أشاهد الشوارع والناس. كائن غريب يحط على الأرض ثم يعود إلى كوكبه مرة أخرى.

كان هناك أمر يحدث في داخلي لا يمكنني تحديده، لا أعرف كيف أصفه. صمت كثيف وحس بأنني غير موجود، أو كائن من تلك الكائنات الطيفية. كنت أحيانًا أصحو من النوم على صوت خالتي تحدث سومة، وأشعر كأنني لا شيء؛ مجرد فراغ يرقد على السرير.

عاد المنظار مرة أخرى أداة للتأمل. أطلع إلى سطوح بيت خالتي، أطل على البيوت المجاورة. بيت الطالبات هو الموضوع المفضل للمنظار، لم يكن يظهر منه غير صف واحد من النوافذ عبر ممر بين عمارتين. المثير في شهوة التلصص هو الجانب الصامت منها، حيث تقبع بعيدًا في انتظار ما سوف يحدث. في تأمل الحركات الصغيرة متعة خالصة. ربما يظن الناس أنه لا شيء يحدث. الأوضاع تتغير وحركات اليد وملامح الوجه متبدلة على الدوام، كل حركة لها معنى في هذا الصمت الذي يغمرك في أثناء المراقبة، ربما ما هو مثير هو غفلة الشخص الآخر عنك، الوهم الذي يعيش فيه الشخص الآخر بأنه غير مراقب، ومعرفتك بوهمه يزيد التلصص متعة.

فكرة المراقبة راحت تتسلل وتسكن مناطق لم أكن أظن أن تدخلها مثلما حدث أن راقبت امرأة عجوز فوق السطوح المجاور لبيت خالتي. كانت تطلع في المساء لكي تضع الطعام للبط، ترتدي جلبابًا منزليًّا من القماش الشعبي قصيرًا وتلف شعرها كعكة في خلفية رأسها، كانت مغرمة بالبط، تقف طويلاً تتفرج عليه يأكل. أراقبها وهي تزغط ذكر البط، وتضعه تحت فخذها، وبعد أن تتم عملها تتمشى قليلاً فوق السطح، وبعد أن تغيم الدنيا يبدو أنها مضطرة إلى النزول مجبرة على أن تترك بهجتها.

كنت أتعجب من تصرفات الناس، وقدرتهم على الانشغال بأمور صغيرة حتى تتحول إلى هوى عميق. مراقبة تلك السيدة حركت رغبة في مراقبة الحياة العادية. لم أعد مُصرًا على مراقبة الأسرار، أصبحت مُحبًا لتأمل الناس وهم يزاولون أنشطة عادية. راقبتُ البيت المقابل لبيت خالتي وهو بيت صغير مكون من طابق يسكنه رجل عجوز شعره أبيض خالص واندهشتُ لدقة حياته وعلاقته الحميمة بزوجته. كان يصحبها من يدها في العصر ويجلسان في شرفة يفصلها عن الشارع سور صغير ومنطقة خالية ربما كانت حديقة ذات يوم، وتلك الأحاديث الخافتة التي تمنيتُ أن أسمعها. ذات يوم قابلتُ الرجل في الشارع، كان يقف صامتًا طويلاً نحيلاً بشعره الأشيب أمام محل البقال وفي يده حقائب من القماش منتظرًا أن يحصل على تموين الشهر، وخطر لي أنني أعرفه أكثر مما يعرف نفسه.

***

(١٢)

قبل امتحانات الثانوية في العام التالي هربت سومة. عاصرت الاضطراب الذي اجتاح حياة خالتي. كان ذلك في المغرب عندما سمعتها تناديني وهي جالسة على سجادة الصلاة، وتقول بطريقة كشفت لي مقدار ما تحملت من قلق: "البت سومة راحت السوق من الصبح ولم ترجع". كانت الجملة فيها من التعجب والخوف ما أيقظني من شرودي. رأيت طيفًا عكرًا في وجهها، قَلقًا يظهر في لمعان حبات عينيها الزرقاء التي تحيطها جفون خالية من الرموش. لأول مرة أشعر بالقلق يطل من وجه خالتي التي أحاطها دائمًا بعد الصلاة جو من السكينة.

عرضت عليها أن أنزل أبحث عنها في السوق وفي مستشفى المنشاوي، قالت: "لا لا، سوف تأتي وحدها". كانت تصبر نفسها وتتعلق بقدر من الأمل، ربما تعود "سومة" في أي وقت ونعرف ما حدث لها. جاء وقت النوم في العاشرة، دخلت غرفتها دون أن تسأل مرة أخرى عن "سومة". في اليوم التالي قمت في الظهيرة ناسيًا الموضوع، رأيتُ خالتي تجلس في الصالة على طرف الكنبة وتنظر إلى الضوء الآتي

من الشرفة المطلة على شارع "قطيني"، مستغرقة حتى إنها لم تشعر بوجودي. سألتها: "لم ترجع سومة؟". قالت بقسوة: "راحت في داهية".

لم تأت على سيرتها بعد ذلك وعلقت على محاولة "حسن" طمأنتها في التليفون قائلاً بأنه سوف يسأل عنها في أقسام البوليس وفي المستشفيات: "لا تشغل بالك البت مايصة يمكن اتلمت على عيل من العيال الصيع".

ظلت خالتي في حالة ارتباك حتى نهاية الأسبوع. جاء عم "محمد السواق" بسيارته البيجو، محافظًا على ولائه لأسرة الرجل الذي رعاه عندما كان سائقًا في بنك مصر، واصطحبها إلى البلد. قضت اليوم هناك، وبعد عودتها في الليل ظلت صامتة وقالت قبل النوم بتعب: "البنت هربت فعلاً". أدركت معاناتها طول أسبوع كامل تعلقت فيه بآمال تنسج نفسها من أوهى الأسباب، لتصد بها عدم التصديق من أن البنت التي جاءت بها طفلة وعاملتها كابنتها وعاشت معها عشر سنوات تهجرها هكذا دون كلمة واحدة.

هروب "سومة" فتح عيني خالتي على ما حدث في الحياة من تغير. تراكمت تفاصيل صغيرة بمرور الوقت، أقنعتها بأن الحياة على وشك الانهيار. لم تكن منتبهة إلى أمور ظنت أنها تخص أخبار الجرائد لا واقع الحياة، مثل هجر الشباب مهنهم وسفرهم إلى خارج البلاد. ذات يوم كانت عائدة من استلام معاش زوجها، توجهت إلى مقر جمعية الأيتام في غرب المدينة، لتترك تبرعها الشهري. رأت طابورًا يمتد عبر الشارع

ويصل إلى بوابة النادي الرياضي. أثار دهشتها الأمر. سألت أحد الواقفين فأخبرها بأنهم يستخرجون جوازات سفر. عادت حائرة. لِمَ يستخرج كل هؤلاء الرجال جوازات سفر؟ وبعد عدة أيام، بدأ ذلك الاضطراب يثير قلقها عندما اضطرت ذات يوم إلى أن تنزل إلى شارع الخان لتشتري دوبارة تربط بها شروش البصل. صدمها الصخب حول الجامع الأحمدي، وعادت متأكدة من أن الحياة فقدت تماسكها وانفرطت.

تعاونت تلك الحوداث الصغيرة لكي تجعل من هروب "سومة" خيانة عظمي، حتى لمس هذا التغير أبسط شيء يمكن أن تظن أنه قد يثير المشاكل؛ فقد تلفت جلبة حنفية المطبخ، وظلت تبحث ثلاثة أيام عن سباك يصلح لها الحنفية بلا جدوى. عادت من الخارج غاضبة وصاحت في وجهي: "بعد ما كانوا مرميين على الرصيف، الآن لا أجد واحدًا يصلح الحنفية؟".

دخلت غرفتها خلعت ملابس الحداد الأبدية، وعادت إلى الصالة يخضب جبهتها العرق وقالت: "اتصل بحسن يبعت لي زفت سباك من عنده، النوم لا يطول عيني". عرفت أن رنين نقطة الماء التي تتسرب من حنفية المطبخ يتردد في الغرف الواسعة للبيت ويجعل ليلها لا يُطاق.

في منتصف الصيف ظهرت نتيجة الثانوية العامة. أنارت وجهها فرحة طارئة بنجاحي بعد عام من القلق، وبطبيعتها المستبشرة ظنت أن الأيام القلِقة تؤذن بالرحيل. لكن الأمر لم يكن على هذا النحو، فقد

ازدادت الحياة صعوبة. كانت تكافح لتعيد اتزان حياتها الذي اختل بهروب "سومة"، تحاول التغلب على حس بالخيانة من الصعب التغلب عليه. منذ ذلك الوقت بدأت بذرة التفكير في العودة إلى البلد لتقيم في بيت زوجها ما تبقى لها من أيام على وجه الأرض ثم تُدفن بجانبه. أُدرك الآن أن ما حسم موقف خالتي ودفعها أن تعود إلى البلد ليس هروب "سومة" ولا شقاؤها في صيانة الشقة بل ظهور الفئران.

كان ذلك صيف عام ١٩٨١ على ما أظن وإن كانت التواريخ لا تمثل لشخص محبوس مثلي، أي معنى. مداومة خالتي على قراءة جريدة الأهرام كل يوم، جعلها تتابع ما يحدث في البلاد، كما تتابع قصص مسلسلات التليفزيون. أتذكر قلقها عندما بدأت تظهر أولى التقارير عن الفئران في الصحف. قالت لي إن الفئران لو تكاثرت يمكن لها أن تبيد البلاد كلها. كانت تظن أن الأمر يخص اقتراب يوم القيامة وظهر لأول مرة إرهاقها من الحياة. في أسطورتها عن هجوم الفئران على الأرض وإنهاء الحياة، ما يشير إلى تعب من أنها لم تعد قادرة على الحفاظ على نظام حياتها الذي عاشت به مع زوجها وأنه يتبدد تحت وقع تغير الزمن. كان لا بد من أن ينضج هذا القرار تحت تأثير صوت صرخات الفئران التي بدأت تغزو منور المنزل القديم. كانت أحيانًا تبوح بما في صدرها قائلة إن أصواتهم فظيعة لا يمكن تحملها.

الحيرة التي وضعتها فيها أصوات الفئران، وبقاؤها مستيقظة فترات طويلة من الليل تتابع حركتهم في المنور وأصواتهم الصارخة، رسختها

تقارير الجرائد عن أنهم راحوا يغزون القرى ويهجمون على محصول القمح وعلى حظائر الدجاج وصغار الحيوانات. بعض التقارير أوردت أنهم قضموا أطراف طفل في محافظة الشرقية. بدا الأمر مرعبًا، موضوع الأطفال له حساسية رمزية بالنسبة إلى خالتي، ومنذ تقرير الطفل الذي قُضمت أطرافه راحت تنتبه بحدة إلى الأصوات وتراقبها بانفعال. بدأ نومها يقل، لكن وجودها في كهفها بعيدًا كان يطمئنها بعض الشيء.

خريف هذا العام شهد توترًا في البلاد، انتهى باعتقال عدد كبير من الناس. كان الأمر بالنسبة لها يحدث بعيدًا في منطقة أخرى، ما دام فرن الخبز مفتوحًا، والطوابير أمام مكتب الجوازات ممتدة، والفلاحون يجيئون كل يوم إلى المدينة، يحملون طرْح الأرض على حميرهم، وعم السيد بائع الفول على ناصية الشارع، فإنّ ما يحدث هناك في عالم السياسة لا يخصنا. خالتي تعاملت مع الأمر كما تعامل معه الكثيرون. لكن الأمر أخذ منعطفًا لم تحسب حسابه، عندما كانت تشاهد العرض العسكري في يوم النصر وهي تجلس على مقعدها المفضل بجانب الشرفة. رأت الجنود ينزلون جريًا من عربات الجيش إلى مكان الرئيس كأنهم يقومون بتدريب عسكري. كانت شاردة غير مدركة لما يحدث، وعندما سمعت طلقات الرصاص، ظنت أنه جزء من التدريبات، ولم تشعر بالخطر إلاّ عندما انقطع إرسال التليفزيون.

ظلت لحظات تتابع الوشيش الذي يغمر الشاشة بعد غياب الصورة، ثم انتقلت لتجلس على الكنبة بالقرب من التليفزيون غير مصدقة ما

يحدث. يومها ذهبت إلى المطبخ وشغلت الراديو لكي تتأكد. في المساء كانت لا تزال على حيرتها حتى بعدما سمعت الخبر مُذاعًا، فاتصلت بحسن وسألته عن صحة ما يقولون في الإذاعة. أكد لها صحة الخبر، وأن الرئيس قد قُتل وطمأنها بأن البلاد مستقرة.

كانت تحتاج إلى هذا الإقرار العائلي حتى تتأكد من أنها شاهدت بنفسها اللحظة التي اخترق فيها الرصاص جسد الرئيس، وظلت تتابع باهتمام أخبار المحاكمات العسكرية، لكن ذلك كان قصة تحدث بعيدًا في التليفزيون والصحف، لم تطغ على متابعتها لأخبار الفئران. كان الرعب القادم من مشهد قتل الرئيس، رعب يخص عالمًا بعيدًا، مثل موت النحاس باشا، لا يهددها بشكل مباشر، لكن انتشار الفئران، رغم أنها ظنته بعيدًا يحدث أيضًا في عالم آخر، إلاَّ أنه كان يؤثر عليها، حتى جاء اليوم الذي دخلوا فيه عالمها.

كانت تقف في المطبخ عندما لاحظت حركة في المنور. رأت فأرًا غليظًا يتسلق الجدار، وآخر يعدو خلفه متسلقًا المواسير. كانوا يعيشون أحرارًا في مكانهم. لم تشعر بهم بهذا القرب أبدًا، تركت "المغرفة" وتوقفت عن الحركة، أصابها قرب الفئران بنوع من الشلل، تنميل في مفاصلها وحس بالخدر كأنها على وشك السقوط. للحظة ظنت أنهم قد انصرفوا، لكنها سمعت في اللحظة التالية صرخات حادة تقترب من زجاج شباك المنور، ورأت أحدهم يعبر مسرعًا على حافة النافذة والثاني وراءه. خبطت بالمغرفة على سطح الرخامة، لكن شيئًا لم يحدث. واصلا

مطاردتهما من جهة إلى أخرى. لم تتحمل الموقف وأيقظتني من النوم، وقد انزاحت الطرحة عن شعرها الأبيض. جلست على طرف السرير وأشارت لي باتجاه المطبخ.

توجهت إلى هناك وبحثت في كل مكان لم يكن للفئران أثر. انتقَلت لتجلس في الصالة على مقعدها بجوار الشرفة، وحدثتني عن الرعب الذي عانته وهي تشاهد المطاردة بين الفئران. بدا لها كأنهم يبحثون عن مدخل إلى المطبخ. قالت إنها لم تكن تصدق الحكايات التي سمعتها في السوق عن أن الفئران تتجول بتبجح في الطرقات وأنها لم تعد تخاف الناس. اليوم صدقت، وخافت أن تدخل المطبخ وحدها. حَملت كرسيًّا من كراسي السفرة وجلستُ معها في المطبخ، حتى أنهت إعداد الطعام.

في الليل أيقظتني مرة أخرى، قائلة إن الفأر لا بد من أنه دخل الشقة وأنه يكمن في مكان ما. في تلك الحالة لا مجال للإقناع، عندما تتسلط تلك الأفكار فلا مجال لأي كلام منطقي. المنطق سوف يزيد الحالة رسوخًا، وكل حجة سيقدمها المرء في نفي الوسواس سوف تنقلب وتؤكده.

أدركت أن خالتي لن تتمكن من العيش هنا مرة أخرى، تحت وطأة اليقين بأن فأرًا قد تسلل ودخل الشقة. كانت تلك الواقعة هي التفصيلة الأخيرة التي حسمت أمر العودة إلى البلد، هناك ستكون وسط أهلها وأهل زوجها ولن تموت وحدها في تلك الشقة الواسعة، التي بدأت الفئران تعرف طريقها.

دخلْتُ غرفة نومها التي أشعر بتوجس من دخولها، فهي كهفها الخاص، لا تحب أن يتردد فيه نفس غير نفسها وطيف زوجها. في هذا اليوم كان وجهها صبوحا وعيناها الزرقاواتان بارقتين بعد أن صلت الفجر. قالت باسمة: اقعد. أخبرتني بأنها لم تعد تتحمل البقاء، وأنها سوف تعود إلى البلد. قالت إنها تعبت حتى استطاعت أن تأخذ القرار، لكن الخيرة فيما اختاره الله. أوصتني ألاّ أهتم كثيرًا بكلام "حسن" فهو أخي الكبير على كل الأحوال، وحمله ثقيل ويريد المصلحة، هو الذي تحمل العبء مع أبيه بعد أن انقسمت العائلة في بداية السبعينيات. يجب أن أعذره. "وإن لم يكن يعجبك أن تعيش معهم، فهذه شقتك". وأوصتني أن آخذ بالي من البتوجاز وأغلقه قبل النوم وأغلق شباك المنور حتى لا تسرح الفئران.

في الصباح حمّلت الحقائق على سطح "البيجو"، وقبل أن تنطلق السيارة، وجدت نفسي أميل إلى كف خالتي وأقبّله.

* * *

(١٣)

الشقة واسعة. أفتقد الونس الذي كان يشيعه وجود خالتي و"سومة". في بعض الليالي تصورت أني أسمع خشخشة آتية من المطبخ. خُيّل إليّ أن الفأر الذي كان يعيش في أفكار خالتي، تسلَلَ إلى الشقة. أفتحُ عيني عند السابعة من الصباح في الوقت الذي كنت أسمع فيه صوت الباب يفتح وتنزل "سومة" لتأتي بالخبز والفول، ثم يختلط عليّ الأمر وأواصل نومًا مضطربًا تحضر فيه حياة بيت خالتي كما كان.

عشتُ فترة أعاني من الصدع الذي تركه هروب سومة. لم أكن أتصور أن يكون لها كل هذا التأثير. كانت الأيام ساحة خالية من الأحداث. في الصباح في كلية الآداب، وفي المساء في بيت خالتي. خلاء كامل بلا معنى. بقيت فترة طويلة أشعر بأن هناك شيئًا ناقصًا، كأن أشكال تجسدي ليست كافية. منذ تلك الفترة بدأت أحلم بالغربان تحوم وتحط على شجرة كافور قديمة وكثيفة الفروع في طريق خال، وتنعق نعيقًا صاخبًا، يوقظني أحيانًا من النوم، متوهمًا أن "سومة" في مكان موحش ومليء بنعيق الغربان.

في الظهيرة بعد العودة من الكلية أذهب إلى بيت أبي لتناول الغذاء، لم أكن أطيق الجو هناك، فقد كان البيت يتحول ويأخذ طابع بيت العائلة. عندما يجيء الأطفال يبدأون في نسج حياتهم في الأركان، على السلالم، وفي بير السلم، وعلى الرصيف، ويأخذ البيت سمة أخرى. أبناء حسن الثلاثة أصبحوا يقيمون تقريبًا في شقتنا، برفقة أمي و"مريم" و"أم سعد"، ولم يكد عام يمر على زواج "محسن" حتى جاءت ابنته الصغيرة، وأسماها "زهرة"، ونادوها "زُهرة" كما ينادون أمي. بسبب "زهرة الجديدة" غمر البيت حس بالبهجة. كانت أمي الأشد فرحًا، فهي ترى التفرع الذي هي أصله. "مريم" دخلت المدرسة الثانوية وأحاطها الجو المتربص؛ فالشبه بينها وبين عمتها "سعاد" يزداد كلما كبرت، وبخاصة بعد أن ثارت المشاكل بسبب رفض "حسن" أن تشترك في فريق الكرة الطائرة في المدرسة، وبدا كأنها قد كبرت فجأة بعد أن نزع الأطفال عنها صفة الصغيرة.

كان يمكن أن أستمر في الاستلقاء خارج مسار الأحداث، لولا بعض الحوادث التي كثيرًا ما أجبرتني على العودة إلى المشاركة، مثل الامتحانات والميلاد والمرض والموت، وغيرها من الحوادث التي تتطلب وجودك حتى ولو بالجسد. في تلك الفترة مرضت أمي واضطررت إلى أن أعود لأقيم في البيت. كان مرضها غريبًا كما قال "محسن". ظلت تشحب ويتدهور جسدها، حتى غدا محسن حائرًا ومذهولاً مما يحدث لها، وجاء الوقت الذي أصبحت علاجاته غير كافية.

انصرف "محسن" عن عيادته وبيته وابنته الصغيرة. ورافقها ليل نهار؛ فقد كان فتاها المفضل، من تبنى وصيتها بأن ننقذ أنفسنا من مصير تلك العائلة ونتعلم تعليمًا يرفعنا بعيدًا عن الوكالة والتجارة. تمَثّل ميلها القديم ونفذ حلمها. كانت تريد إنجاب طبيب ليرعاها عند موتها، لكن الحقيقة أنها كانت تميل بطريقة سرية إلى الأطباء وأجوائهم. أنجز "محسن" ما تمنته من الزواج من رجل لم تره مرة واحدة قبل أن يتقدم لخطبتها، وعاشت معه حياة صمت لم يعرف تفاصيلها أي منا. ربما كان غرامها بالطب ميراثًا عائليًا، جاء من الميل العميق إلى أبيها الشيخ محمد حجازي.

كان والدها يقيم في قرية صغيرة بالقرب من طنطا، له قطعة أرض يعيش منها ويعمل مأذون البلد. تعلم في المعهد الأحمدي في شبابه لكن لم يجد ميلاً إلى إكمال الرحلة إلى الأزهر. كل أسبوع يأتي من قريته يصلي الجمعة في الجامع الأحمدي ويقضي اليوم في الوكالة، محافظًا على صداقة توطدت بمرور الأيام مع جدي "بدوي"، بسبب غرامه بطب الأعشاب. كان يأمل أن تعينه الوصفات الطبية في إنجاب ذكر. يبحث في الكتب العربية القديمة حتى استغرق وفهم كافة الوصفات، التي لا يعرفها "بدوي البري" الذي ورث تجارة الأعشاب. استعان به العطار في تجهيز الوصفات لمختلف الأمراض، وبسبب علوم الشيخ حجازي ازدهرت محلات آل البري، وغدت مقصد الناس.

قرّب الغرام بالأعشاب والطب بين الرجلين وكان سبب مجيئنا إلى

الدنيا. كان الشيخ حجازي متسامحًا في ما يخص الوصفات التي أنجزها غير أنه يأخذ عينات منها لتعينه على إنجاب الذكر. بعد خمسة بطون من البنات عرف أنها المشيئة وسلم أمره إلى الله. تلك فترة هياج جدي بدوي وغرامه بالبنات الصغيرات، في نهاية عمره (هل كانت لوصفات الشيخ حجازي دخل بالموضوع؟) في إحدى الزيارات قرر الرجلان أن يربطا بينهما برباط أقوى من الصداقة.

أمي هي البنت الثانية للشيخ حجازي، لم تنل من التعليم مثلما نالت خالتي "خضرة" التي حفظت أجزاء متفرقة من القرآن. كانت تحب اللعب في أرض النخيل كما قالت خالتي: "يوم جوازها عثرنا عليها وراء النخلة، كانت تلعب استغماية". في البداية كانت سعيدة بالزواج في المدينة مثل أختها. بعد قليل ارتبكت حياتها، فالبيت القديم في شارع الحلو كان به من المشاحنات والتوتر ما ظل خافيًا علينا. منذ ذلك الوقت البعيد حافظت على عادة أثارت دهشة الجميع. كانت تضع تحت مخدتها حفنة من الينسون ملفوفة في قطعة من الشاش.

أحاطت بها رائحة الينسون على الدوام؛ تهف من حضورها. الطيف الخاص بها هو رائحة الينسون، حتى إن زوجة عمي ونساء العائلة سخروا منها. ذات يوم أمَرها أبي أن ترفع حجاب الينسون من تحت المخدة، قائلاً بطريقته الجافة: "بطلي عبط".

كانت أمي من بين خالاتي من تؤمن بعقائد الشيخ حجازي في القوى السحرية للنباتات. ربما عانت من مخاوف لم يعرفها أي منا، ربما كانت

تحلم بكوابيس وخائفة أن يكون زوجها مثل أبيه. كانت مخاوفها أكبر من أن تتخلى عن رائحة الينسون. راحت تبحث عن طريقة تعيد بها الرائحة إلى فراشها، إلى أن توصلت إلى أن تضع حجاب الينسون سرًا تحت السرير. يوم الجمعة عندما كانت "أم سعد" تمسح الغرفة أخرجته من تحت السرير. وقالت بدهشة: "شوفي يا ستي، ماذا وجدت تحت سريرك؟" في النهاية لم يكن أمامها غير أن تنثر حبوب الينسون في الدولاب وتحت السرير لعل طيف الرائحة يصلها أثناء نومها.

ظلت رائحة الينسون تحيط بها وتعطيها حسًا خاصًا، وعندما انتقلنا إلى العيش في البيت الجديد، ظلت تحيطها رغم الروائح الجديدة للجدران والخشب. اعتدنا جميعا تلك الرائحة التي شكلت إحساسًا خاصا بها، ربما كان الحاجز الذي قام بيني وبينها، سببه تلك الرائحة. كنت أشمها في كل وقت، منذ طفولتي، وربما بسببها لم يحدث تقارب بيني وبينها بل، مجرد تقبل ودفاع عني عندما تدار ضدي جلسات محاكمة تنتهي بالجلد. مجرد ود، بين شخصين يشتركان في رفض سري لوضعهما، وربما مثل سجينين، بسبب عجزهما عن إيجاد مخرج من السجن، يتبادلان اللوم على أن أحدهما لا يجد مخرجًا لينقذ الآخر. كان يمكن أن يظل موضوع الينسون غامضًا بالنسبة إليّ طوال العمر، لولا ذلك المساء في بيت خالتي عندما قالت لسومة: "بت يا سومة اعملي لي كوباية ينسون، صدري مقبوض". سألتها عن علاقة الينسون بانقباض الصدر. الينسون للمغص ولتهدئة المعدة. قالت إن جدك "حجازي" كان يوصي به عندما يشعر المرء بالضيق لأنه يهدئ النفس. ثم قالت دون أن

تدري أنها تحل لي لغزا؛ إنها عندما تهاجمها الكوابيس تضع لفة ينسون بالقرب من السرير فتهرب الكوابيس وتحل محلها أحلام طيبة، وضحكت قائلة:

"الينسون للكوابيس مثل الشيح للثعابين".

تدهورت صحة أمي بسرعة شديدة، لم يعد "محسن" ينام في شقته، أصبح ينام على مقعد أمام سريرها. أسمعهما يتحدثان في الليل. كنت أحب علاقتهما وسرهما الخاص. أحب التفاهم الصامت بينهما. لكن المرض لم يتوقف. في النهاية أصبح محسن في حالة انهيار. لم أره مهمومًا ومُهانًا إلاّ في تلك الأيام. فقد بدا أن علوم الطب غير قادرة على إيقاف التدهور. لم أره يبكي إلاّ في تلك الأيام، كان ينهنه مثل الأطفال. أما "حسن" فقد بدا مرتبكًا كأن الأمر يتطلب إبداء نوع من المشاعر لا يعرفه.

عدت إلى البيت ذات يوم وجدت "محسن" يجلس على مقعد أمام سريرها يقرأ سورة ياسين بصوت مرتفع، ووجهها الذي نحل تمامًا، تغيرت ملامحه، وعندما رأتني ابتسمت وقالت: "ربنا يهدّي قلبك"، وابتسمت مرة أخرى. كانت "مريم" نائمة و"أم سعد" تغسل المواعين. دخلت غرفتي وتمددت على السرير، جاء "محسن" وقال: "إن كنت ستسهر خذ بالك منها. أعطيتها حقنة، سوف تنام فترة، سأنزل لأنام ساعة، وإن حصل حاجة صحيني".

شممت رائحة ينسون. صحوت من نومي. كانت العاشرة صباحًا، السماء غائمة وخُيل إليّ أني سمعت صوت مطر. الشقة صامتة، صمتًا

ثقيلاً، دخلت "مريم" الغرفة، ملامحها متحجرة، ولون وجهها شاحب. أطارت نظرتها العميقة كل ما في النوم من خيوط كنت أتخبط فيها. قالت بصوت واضح: "ماما". اندفعت إلى غرفتها. كانت نحيلة تمامًا، جسد فقد علاقته بالست البضة البيضاء التي عاشت في بيت العائلة مشرقة ومحاولة تصبير نفسها على حياة سوف تنصفها في النهاية.

الغرفة خالية من النفس، من الهواء، لم يكن هناك غير الجسد، المغطى باللحاف القديم وتفوح منها رائحة ينسون، قوية، لعله ما تبقى من الروح بعد مغادرتها الجسد. تلك الرائحة التي ظلت في الغرفة، وقتًا طويلاً بعد ذلك.

عدت إلى الصالة. "حسن" عيونه منتفخة حمراء و"محسن" يقف وراءه مذهولاً. زوجة "حسن" جاءت تلف شعرها الكثيف بشال أسود، قال لها بخشونة: "خذي العيال من هنا، ابعثيهم إلى شقتكم". بعد قليل غص البيت بذلك الحس الذي كان له أيام شارع الحلو. جاء عمي "صلاح" وعدد من رجال العائلة.

في الظهيرة جاءت خالتي وأقارب من البلد. شعرت بأن الجو متوتر. دب خلاف بين خالتي وبين "حسن". جاءت خالتي لتصحب جثمان اختها لتدفن في البلد بجانب أبيها وأمها كما أوصتها، لكن "حسن" أصر أن تدفن في مدافن عائلة البري. أيما كان الأمر، فقد بدا كأن كل جفاء حياته قد تركز في أن يحبس جثمان أمه في مقبرة آل البري كأنها أحد ممتلكاتهم. أخذ الموضوع بإصرار كأنه مسألة حياة أو موت. حتى الآن لا

أفهم موقفه، وعندما سألت محسن بعد ذلك عن تفسيره لهذا الإصرار لم يكن عنده غير: "مخه صغير". حاولت خالتي بالكلام الطيب أن تلين جانبه ولكن وجهه انتفخ بالدماء، وشاربه الأصفر اهتز وهو يقول: "أمي لازم تندفن مع أبويا". تدخل محسن، وتدخل رجال العائلة منهم مؤيد أن يعود الجثمان إلى أصله ومنهم من يرى أن الأولى أن تدفن في مقبرة العائلة التي قضت فيها حياتها. لكن حسن لم يتزحزح عن موقفه، وأخذ يقول كلامًا غريبًا عن أن القبر قد فتح وكُشفت العظام ولا يصح أن تُفتح المقابر على عظام الجدود ثم تغلق بدون الزائر الجديد.

قالت خالتي بعد أن تعبت منه:

"لن تسامحك أبدًا".

كان وجهها مزمومًا، وعيناها الزرقاواتين تشعان. قامت ودخلت غرفة أمي، وظلت تقرأ القرآن. كان الأمر مرعبًا بالنسبة إلى خالتي، فحسن لم يرع وصية الميت. كان يطأ في منطقة محرمة. قالت له بعد أن خرجت من غرفة أمي بطريقة غريبة: "العرق مادد".

غضب خالتي النادر، كان مدهشًا ومرعبًا في نفس الوقت، جعلنا جميعًا نشعر بقدر من القلق، وعندما بدأ الرجال يحملون النعش، جرت مريم وتعلقت به وهي تبكي، ربما كانت تؤمن بطريقة سرية بعقائد خالتي، ربما بغريزتها الأنثوية تدرك ما في هذا الموقف من شقاء للميت، وظل الأمر مربكًا لنا جميعًا وربما لحسن نفسه، الذي شعر بخطورة الأمر عندما رفضت خالتي أن تكمل أيام العزاء وركبت السيارة البيجو وغادرت البيت.

أحيانًا أصحو من غفوتي في الظهيرة أشم على غير توقع رائحة الينسون، في تلك اللحظات أشعر بأن خالتي على حق. كانت رائحة الينسون تطل من كل مكان، حتى سألتُ مريم إن كانت قد شمتها. قالت إن سرير أمي لا تفارقه رائحة الينسون وأنها أوصت أم سعد أن تنشر المراتب في الشمس. أحيانًا أبحث عن تلك الرائحة ولا أجدها وأحيانًا تهل على غير توقع، كأن الروح تحوم في المكان. عندما زرت خالتي، بعد ذلك بفترة، لكي أسترضيها وأطلب منها أن تسامح "حسن" قالت إنها لا تملك شيئًا، من بيده السماح ليس هنا. صمتت وقالت بحزن: "من يتحمل قلق الموتى في قبورهم، من يتحمل ذلك غير قلب جاحد". اندهشت من تلك النبرة الغاضبة وهي التي كانت تدافع عنه طويلاً بأنه هو من شال الحمل ورعى البيت. قالت لي في ذلك اليوم: "أختي عاشت تعبانة ولم تسترح في موتها. ألا يكفي أن أباك قطعها من أهلها وهي حية يقطعها أخوك من أهلها وهي ميتة؟".

***

(١٤)

أحببت لون شمس الشتاء. ضوء لامع خفيف، خال من كثافة ضوء الصيف وغشاوة ضوء الأيام الغائمة، يغمر بيوت شارع حسن رضوان القديمة ويجسم شرفاتها ذات الأسياج الحديدية. تُبرز الظلال زخارف الجص حول الأبواب وأطر النوافذ، لكنه كثيرًا ما أثار في خيالي رائحة الينسون. في تلك الأيام لم تكف رائحة الينسون عن مطاردتي، مثل روح قلقة. ربما هي التي دفعتني أن أستعيد علاقتي ببيت خالتي من جديد وأعيش هناك، هربًا من أن تتسرب إلى كافة خواطري.

في الليل يأتي عدد من أصدقائي، نقضي الوقت في الحديث أكثر من المذاكرة. جلسات طويلة قضيناها في تلك الأيام نتحدث أو نلعب الشطرنج؛ لعبة "إبراهيم الألفي" المفضلة. أحيانًا أتذكر "مجدي المغربي" الذي ترك المدينة وأقام في القاهرة بعد التحاقه بمعهد الفنون المسرحية، مندهشًا من قدرته على أن يمضي بعيدًا، وبدأت أتفهم أنه من نوع آخر، ليس مثلي أو مثل "إبراهيم الألفي"، نحن نستسلم لمجرى الأحداث، أما هو فيصنع الحدث، وأفكر أن طريقته في تقليد "جون

جو يغص برائحة الأعشاب، لا هم لهم غير متعة أجسادهم. اندهشت من تلك الحرية التي كُتبت بها تلك الكتب، وبدأت أفهم هذا الانشغال بالجسد والحواس المطمور والمشع داخل حياتنا، ثم تنبهت إلى الحضور الطاغي للجسد في تجارة العطارة التي امتهنتها عائلتي على مر السنين، حضور مبهج محرم، محروس بفكرة الميراث التي تتحول في الثقافة إلى فكرة الشرف.

تجارة العطارة هي تجارة مثيرات الحواس. الأعشاب والعطور ترعى طيف الجسد. كيف يكون للجسد هذا الحضور في رموزه ويتم إخفاؤه؟ هذه الحياة لا تقيد الجسد كما تدعي بل تحتفي به. منحتني هذه الأفكار شعورًا مضاعفًا بالتوتر الكامن في حياة لا تعلن عن الجسد صراحة لكن تحيطه بالعطور والملابس وتحفزه بالأعشاب، واندهشت من التحريم المغلظ للجسد في الوقت الذي تشيع رموزه كل الشيوع. خمنت أن الأمر قد لا يكون بغرض التحريم بل بغرض خلق الإثارة. ناقشت "إبراهيم الألفي" في تلك الفكرة. ضربت أمثلة على الإثارة التي تصاحب ما هو مخفي: تأمل جزءًا من جسد يلوح في نافذة. العري الكامل ليس مثيرًا كالعري الناقص؛ إنه يجعل الحواس أكثر إيجابية ورغبة في إكمال النقص ومعرفة ما وراء الحجاب. التحريم المصطنع يثير حب الاستطلاع الطبيعي الذي أخرج آدم من الجنة. لم يهتم أصدقائي بالكتاب بهذا القدر ولم يُصب أحدًا بالصدمة كما أصابني.

عشت "الروض العاطر" كظاهرة أكثر منه كتابًا. كان بالنسبة إليّ

علامة على كسر فكرة السرية وبداية ظهور ما هو مخفي إلى النور. عام ١٩٨٢ عام طباعة الكتاب في دمشق اعتبرته في تقويمي الخاص، عام ظهور الخفي من حياتنا. في الليل أنظر إلى الصفحات الأولى بدهشة. تلك الأمور المحجوبة التي لا يمكن ذكرها في المجالس العامة، مطبوعة بحروف الطباعة التي تطبع بها كتب الأخلاق والعلوم. من جرؤ على أن يطرح الباطن على السطح بهذه الطريقة العادية التي تطرح بها معلومات الجغرافيا؟ كان تركيزي في الليل على منظر الغلاف والطباعة واسم دار النشر، وكلما تأملت كلمة "دمشق"، أشعر بأنها مكان في كوكب آخر. أتفهم أن هذه الكتب كانت تُخط في زمن قديم ويتم تداولها في إطار المشايخ والتجار، ضامنين أن تلك المعلومات لن تفارق حيز الخاصة؛ مهما زادت المخطوطات لن يتناولها إلاّ من تعلم، وهم قلة بالنسبة لجموع من الناس. لكن أن يطبع هذا الخفيّ على الملأ بهذا الشكل فهو أمر فوق تصوري. كنت أقضي وقتًا طويلاً أعيد مرة أخرى قراءة معلومات الطباعة؛ الشروط التي أنتجت تلك الوثيقة.

في هذا المناخ كان كتاب "النفزاوي" بالنسبة إليّ على الأقل شيئًا باهرًا، يُلقي ضوءًا على أوهامي ويُشعرني بحقيقة ما أشعر به. يأتي بي من استغرابي لنفسي ويقربني من النبع الذي صدر عنه. "النفزاوي" كان قاضي الأنكحة في تونس. ظللتُ أناقش إبراهيم الألفي في موضوع "قاضي الأنكحة" يومًا كاملاً، ورغم أنه قال لي ببساطة إنه قاضي الأحوال الشخصية كما يمكن أن يسميها الاصطلاح الحديث، غير أن الانبهار لم يتبدد. ربما لأننا كنا ما زلنا في زمن الكلمة. فأجهزة الفيديو التي شكلت

نقلة في هذا الموضوع لم تكن متاحة في بداية الثمانينيات على نطاق واسع، لم تكن قد انتشرت في البيوت، واشتمل عليها جهاز العرائس.

* * *

(١٥)

تعرفنا في ذلك الوقت إلى شاب نحيل يقف صامتًا يدخن سيجارته بتعجل قبل دخول المحاضرات. لا أذكر سبب الصداقة غير أنه كان زميلاً لنا في المدرسة الإعدادية، ولم نشاهده أيام مدرسة طنطا الثانوية، لأنه كان مغرمًا بالأفلام الأجنبية في سينما الجمهورية، ودخل مدرسة التوفيقية بالمصاريف.

"توفيق السيد" فتح أمامنا بابًا جديدًا من أبواب تأمل الجسد؛ كان مغرمًا بالمجلات الجنسية. كل أسبوع يسافر إلى الإسكندرية ليجلب لنا حصيلة جديدة. بدأ تجارته في المجلات الأجنبية وبعد ذلك شرائط الفيديو من بيت خالتي. أقام لنفسه ركنًا في غرفة الجلوس؛ كرتونة فيها كل ما يحصل عليه من باعة الكتب. المجلات كانت حديثة، لم يكن قادرًا على تفسير مصدرها فيخمن أنها تأتي من المراكب التي تقف في الميناء.

"توفيق السيد" من أعجب من قابلت، لا تشعر بوجوده، يمكنك أن تكتشفه من رائحة الدخان، وطيف بسمة لا تفارق وجهه، يحيطه على الدوام حس بأنه متعجل، لا بد من أن يغادر الآن هذا المكان ليلحق

شيئًا غامضًا في مكان آخر. كان يعيش في شقة أسرته في شارع "صدقي". جدته تعيش في نفس البيت، حيث تزوج أبوه الذي كان يعمل "مشرف عمال في ورشة شركة وسط الدلتا". يوم أن نطق تلك الجملة ببراءة وثقة، ضحك "إبراهيم الألفي" سائلاً: "وسط الدلتا لإيه؟ للمحاريث؟ للملح والصودا؟" نظر "توفيق" بعيونه العسلية التي تقترب من اللون الأصفر ووجهه الباسم متعجبًا أن تلك العبارة الطويلة لعمل أبيه لا تحمل معلومات كافية، وقال معتذرًا: "شركة الأتوبيس يا أخي". كان جده يعمل مدرس ابتدائي لا تزال جدته تحتفظ بطربوشه ومظلته، وله صورة معلقة في غرفة الجلوس. أبوه لم يفلح في التعليم، فتعلم الميكانيكا، بعدها ألحقه أبوه عن طريق أحد تلاميذه في شركة الأتوبيس. عاش توفيق مع إخوته الخمسة في نفس الشقة، وتزوج أخوه الكبير في أحد الغرف، ولم يعد له مكان غير كنبة غرفة الجلوس، ورغم تلك الحياة المزنوقة فقد استطاع التغلب على المصاعب التي تعوق رغباته دون تحويلها إلى مشاكل. الكائن الوحيد الذي يمكنه أن يعيش بدون إدراك لفكرة "المشكلة". لا يعرف هذا اللفظ ولم يصادفه أبدًا، حتى التدخين الذي أقامت جدته المشاكل بسببه، حلّه بهدوء، وقال لها: "خلاص يا ستي أنا بطلت السجاير". بعد ذلك راح يتسلل إلى سطوح البيت يدخن براحته، وقبل أن ينزل يتناول قطعة من اللبان لأنه يعرف جدته، فيمكنها أن تناديه عندما يدخل البيت، وتجبره على فتح فمه حتى تشمه. بالنسبة لتوفيق السيد كل شيء يمكنه أن يُحل بتجاهله، وتستطيع تنفيذ ما تريد في الهامش الضيق الذي يمكنك خلقه على الدوام.

ساعدته قدرته النادرة على الحديث مع أي شخص، أن يطور تجارته ويشيع بضاعته في كل مكان. بدأ عمله بصور الممثلات ثم المجلات الأجنبية ثم شرائط الفيديو. كانت له طريقة بريئة وهو يفتح الحديث من أشد المناطق هشاشة واشتراكًا بينه وبين المتحدث. بعد قليل يُخرج علبة السجائر ويعزم بسيجارة، وبعد ذلك يطور الحديث العادي إلى أحاديث شخصية، يكون خلالها قد كون فكرة عن طبيعة الشخص، ويعرف إن كان يمكنه أن يبيع له أم لا. لم تكن فكرة البيع أيضا شديدة السيطرة عليه، فهو يعرض ويريد أن يتعرف على آخرين لهم نفس الاهتمام. كان يخمن أن كل الناس تقريبًا مهتمة، لكنهم لا يجرؤون على الإفصاح وكل ما يقوم به هو أن يساعدهم على التعرف على ما يريدون، ومن ناحية أخرى يختبر صحة فكرته.

قد يكون هذا الشغف غير العادي هو الذي خرب تلك الأيام التي عشناها في شقة خالتي. كل يوم والثاني يدخل علينا "توفيق السيد" وبصحبته شخص جديد، يجلس معنا كأنه صديق. بعد قليل يخرج أرشيفه من المجلات وينشرها له، يريه المجلات الفرنسية والأمريكية ويحتفظ بالمجلات الألمانية فهي تفضيله الخاص. في تلك الفترة تعرفنا إلى ناس غريبة من الصنايعية إلى الموظفين والمحامين والقضاة، ومرة دخل علينا ومعه عمدة قرية من الدقهلية تعرف إليه في القطار وهو راجع من الإسكندرية. كان "توفيق السيد" يعيش حالته الخاصة باستغراق طبيعي. يتحرك ببساطة غير منتبه إلى الأمور التي تثير مشاكل وتضايق الآخرين، لم يكن يقيم الاعتبار لتلك الأمور.

ذات يوم عاد "مجدي المغربي" من القاهرة. كانت ليلة شتوية، وكان يرتدي سويتر من الجلد ويطيل شعره كالممثلين. ابتسمت وقلت: "لقد أصبحت ممثلاً وأنت ما زلت في السنة الثالثة". قال إنه أدى دورًا بسيطًا في فيلم سوف يُعرض في العيد. كانت ليلة خميس صاخبة، غطى حديثه المبهر عن التمثيل واستديوهات السينما على تلك الرغوة من الحياة التحتية التي نعيشها، وعندما جاء "توفيق السيد" في ذلك اليوم وهو يحمل زادًا من المجلات الجديدة؛ دفعة جديدة من نساء غربيات بعيون خضراء وزرقاء، وأجساد لامعة ونسب نموذجية، احتقر "مجدي المغربي" تلك الحياة الوهمية التي نعيشها، واشتبك مع "إبراهيم الألفي" في نقاش صاخب حول "الحياة الأصل" و"الحياة النسخة".

بدت فكرة الأصل والنسخة كأنها تحمل في باطنها رغبتهما على تأكيد طريقتهما المختلفة في الحياة. كان "إبراهيم" منفعلاً وهو يتحدث عن أن سكان باريس عندما ينزلون إلى حوض الأمازون يمكنهم أن يقولوا على من يعيشون هناك أنهم يعيشون حياة وهمية، ولكن سكان المريخ لو نزلوا إلى باريس سوف يرون تلك الحياة الغريبة التي يعيشها سكان باريس، الطرق المزدحمة والهوس بالوقت واللهث من أجل تسديد الفواتير كأن الحياة البشرية تم رهنها من أجل تسديد فاتورة. رد "مجدي" بأن أحلام اليقظة ممتعة وأن الحياة الفارغة في الظل لا يمكن أن تكون حياة حقيقية، مهما حاولت أن تصفها بأنها الأصل. ابتسم "إبراهيم الألفي" قائلاً: أنت تعد نفسك لكي تكون صانع أحلام يقظة، سوف تغتني وتكون نجمًا بسبب بيعك للحياة الوهمية التي تلومنا على عيشها.

ما ضايق "إبراهيم" يومها هو الحس بالتعالي، كأن "مجدي" لم يعش بيننا. اقترحت يومها أن ننزل لنتمشى ونجلس في مقهي. كان المطر يبلل شارع "قطيني" الخالي ويلمع الأسفلت تحت ضوء عمود نور وحيد، أمام القصر القديم. وصلنا إلى شارع البحر وراح "مجدي" يحكي عن الدراسة في معهد الفنون المسرحية، كان يتحدث بفخر وحس بالحياة الحقيقية غير عابئ بالصمت المتربص الذي سكنه "إبراهيم الألفي". ورغم تلك الزيارة الخاطفة، فقد ظلت غرفة جلوس شقة خالتي كما هي تنبعث فيها الإثارة من صور النساء في المجلات الأجنبية، وزاد الأمر بهجة أن تطوع إبراهيم الألفي ليقرأ لنا القصص المكتوبة في المجلات. معرفته بالإنجليزية والفرنسية ساعدتنا في معرفة قصص لا نهاية لها.

في هذا الجو صحا جسد "سومة" من غفوته، وأصبح، كلما تأملت النساء وكلما ازددت معرفة بالأسرار، أكثر حضورًا من أيام تواجده. استعادت لحظات المتعة العابرة مع سومة، التي كانت مجرد أحداث عادية، في ضوء تلك القصص، وجودها بتجسيم أكبر وبثراء لم يكن لها، ولاح لي في إحدى الليالي أن أهم تجربة عشتها، كانت في ذلك اليوم الذي فتحت باب الحمام ورأيت جسد "سومة" مكتمل العري، ووجهها الأسمر محاط بالشعر المبلول وصوتها المليء بالخوف والمرح: "يا مصيبتي"، ثم همسها أن أنصرف، ولمعان عينيها وهي تختبئ داخل البشكير، وانصرافي المتوتر خوفًا أن تسمع خالتي حديثنا.

جعل البعد جسد "سومة" العاري مؤلمًا وعادت هذه اللحظة محمولة

على شحنة عاطفية من الشوق، والألم من ضياع حياة لم أنتبه إلى جمالها وقت عيشها. صحا هذا المشهد البصري كأنه أهم من كل ألعاب الحواس، ما جعلني أنتبه إلى أن ما يحدث لي أعيشه بعد انتهاء حدوثه.

المنظار هو ما جعل النظر يعلو على اللمس، أو ينفصل عنه، وكان هذا ما دفعني إلى أن أرفض محاولات "توفيق السيد" أن يأتي بإحدى البنات إلى شقة خالتي، هذا حد لا يمكنني أن أورط فيه الشقة التي شهدت حياة خالتي، وبدت فكرة أن تدخل الشقة واحدة لا علاقة لها بالبيت أمرًا غريبًا. لم تفلح نقاشات "توفيق السيد" في منحه تصريحًا بأن يصحب إحدى البنات. ذات يوم جاء مبتهجًا، وأخبرني أن هناك فتاة في شقة أحد أصحابه. "توفيق السيد" عجيب لا يمكن لشيء أن يوقف رغباته، لا شيء يقف أمام طريقته اللينة في الوصول إلى ما يريد.

كانت تجربة خشنة رسخت فكرة المشاهدة ونفرتني من الجنس الجماعي. المشاهدة أكثر متعة. في الجنس الجماعي حس بدورات المياه العمومية وفيه نفور من جانبي بسبب الغربة التي شعرت بها معلقة في الغرفة ورائحة العرق والسرير ذي الملاءة المجعدة، والبنت السمينة ذات القميص الأسود، والنظرة المتوترة. هذه التجربة كانت صعبة.

في المغرب نزلت من تلك الشقة، متجها إلى خلاء شارع البحر ومررت بجامع الشيخة صباح وشعرت بأنني "ملوث"، وتسلل إلى حس بأن النساء كائنات غريبة. كان أمرًا منفرًا، لم أتحمله.

***

(١٦)

دخل "مجدي المغربي"، ذات يوم، يحمل كرتونة من كراتين الصابون. جلس مبتسمًا. سألته: ما هذا؟ قال: أفلام. لاحظ دهشتي، فقال بجدية: "بجد أفلام. شرائط سينما". أشار بيده: "اتفرج". وعندما لاحظ أنني لا أجاريه في مزاحه، أخبرني، أن أحد عمال استديو مصر يتاجر في قصاصات الأفلام التي يحذفها الرقيب. قال وهو ينظر إليّ كأنه لم يعد يعرفني: "الصور التي كنت تحاول اكتشافها لما كنا نشاهد الأفلام أيام ثانوي". ثم ضحك:

"مد يدك، عالمك".

لم أتلق هدية أكثر تعبيرًا عن نفسي مثل الدراجة والمنظار وقصاصات شرائط السينما. كنت محظوظًا، أن تتاح لي رؤية المشاهد التي تم طردها من شريط السينما المعتمد رسميًّا. المناظر التي ظن الرقيب أن الناس باعتبارهم أطفالاً لا يجب أن يشاهدوها. تلك لحظة من أشد لحظات حياتي ثراءً. سوف أطالع الجانب المحبب لي من الحياة، الجانب الذي بحثت عنه في فجوات الحوادث اليومية وفي ثنايا قصص الأفلام، وفي

التعابير المضمرة في الملامح. أيام إدماني على مشاهدة أفلام السينما، كنت أشعر بالمقص مسنونًا مستعدًا للحذف عندما تدخل امرأة غرفتها وعندما تحدث لحظات حميمة بين الناس، نفس ما يحدث في الحياة. في تلك الليلة وبفضل مجدي المغربي، كان "قفا" الحياة يتكوم أمامي في كرتونة صابون.

قضيت أمسية أصنف المشاهد وأستدل من الصورة المعكوسة على الممثلين وقصة الفيلم. استطعتُ أن أخمن بعض الأفلام. تعرفتُ على أجواء فيلم "حمام الملاطيلي" ومشاهد من فيلم "أبي فوق الشجرة"، ومشهد من فيلم "ثرثرة فوق النيل"، لكن بقية الصور لم أستطع أن أحدد أفلامها. الغريب أن بعضها كان مشهدًا عاديًّا. إحدى الممثلات ترتدي حمالة الصدر ثم بدأت في حلها، وفجأة حدث شيء، سقطت حمالة الصدر، على الأرض، ووقفت عارية. محاولة تخمين الأفلام منحت المناظر بريقًا ودفعتني إلى التفكير في إمكانية أن أؤلف منها فيلمًا. فكرت في وسيلة تمكنني من مشاهدة هذه الصور كما أشاهدها في السينما، بدلاً من التدقيق في الشريط في ضوء الأباجورة فترة طويلة.

انتبهت في الصباح إلى أنَّ مشكلة عرض الصور يمكن أن تُحل بواسطة عدسة المنظار. لحظة مباغتة، برقت الفكرة، كأن قدري مرتبط بالمنظار، والمسافة، والضوء. يمكنني أن أنشئ الفيلم الذي لم يشاهده أحد. يمكنني صنع جهاز عرض. الأمر يحتاج إلى عدسة ولمبة الأباجورة، وصندوق من الكرتون، ثم أضع الشريط مسلطًا عليه ضوء المصباح،

ستظهر الصورة من خلال العدسة على الحائط. ارتديت ملابسي وتوجهت إلى محل العدسات في شارع "عزيز فهمي" شاعرًا بنفس السرية والاختلاس اللذين جربتهما يوم شراء المنظار. كان صانع العدسات رجلاً عجوزًا منحنيًا قليلاً إلى الأمام، شرحت له الفكرة فقال:

"لكن لا بد من تركيز الضوء".

قلت منشرحًا:

"سأستعمل صندوق صابون الشمس".

في الليل كنت قد صنعت جهاز العرض، وظهرت أول صورة على الحائط. كان جهازي يحتاج إلى ضبط، إغلاق الصندوق بالكامل، ولمبة الكهرباء داخله لا بد من أن تكون ثابتة، ثم أن فتحة العدسة يجب أن تكون محكمة، ولا بد من تعديل المكان الذي سأدلي منه الشريط بين الضوء والعدسة، لكن ذلك لم يكن مهمًا، لقد امتلكت بداية الطريق. في الأيام التالية حسّنته وأصبح جاهزًا. ظهرت اللقطات على الحائط. رأيت "صباح" تقف عارية تحاول أن تلم ملابسها من تحت شجرة، رأيت ممثلة شابة تخرج من البانيو، وجسدها مبلل بالماء. وأخرى في أثناء ارتدائها ملابسها الداخلية.

قضيت تلك الفترة أدير جهازي الصغير بالليل، وأتابع ما حرم من رؤيته الجمهور، حاضرًا على جدار غرفتي. كنت أتحكم في سرعة العرض وإيقاعه، وتسلسل القصة، كنت هنا في قلب العالم الخام ويمكنني تشكيله، يمكنني أن أتأمل عشرات المرات لقطة واحدة، وقد

نزعت عنها التتابع الخاص بالفيلم فبدت تفصيلة مليئة بالسر. بعد ذلك بوقت طويل عرفت أن المثير في تلك التجربة لم يكن صور الممثلات واللحظات الحميمة التي تم حذفها من الأفلام بل كونها معروضة على حائط غرفة الجلوس في شقة خالتي.

بعد قليل لم يعد جهاز العرض الخاص بي مبهجًا، كان مثيرًا في وقته وأيقظ رغبة في مشاهد أفلام الجنس، في ذلك الوقت بدأ "توفيق السيد" يطور تجارته منتقلاً من المجلات إلى أفلام الفيديو، وقتها اشترى جهاز فيديو وتركه في شقة خالتي، ونقلنا التليفزيون إلى غرفة الجلوس، وأصبح المكان جاهزًا لسهرات الخميس، ثم استغل فترة تجنيده في الإسكندرية ليحصل على الأفلام النادرة. يسرت له هوايته وطريقته الشخصية أن يتخطى الكثير من مآزق فترة التجنيد وأن يُعيَّن بعد ذلك مدرسًا في التربية والتعليم. لم يكن في حاجة إلى توصية كان يحمل سلاحه: المجلات وشرائط الفيديو. فترة غريبة استمرت حتى تخرجت في كلية الآداب وساعدتني على تحمل التجنيد.

في تلك الفترة، تراخى التحريم الذي صان المكان، وغدت شقة خالتي ملجأً لكل من أعرف من أصدقاء. كل خميس يأتي عدد غريب من الناس. المتزوجون أكثر من الشباب، تنوعت مهنهم ابتداءً من الصنايعية إلى أساتذة الجامعة، مما جعل "إبراهيم الألفي" يتعجب من أن الناس في بلادنا لا تجتمع إلا من أجل الحشيش والجنس.

رأينا كمية لا تحصي من الأفلام، تنوعت من الأفلام التي تصور

الجنس في أوقات العمل وفي المدارس والعيادات وفي الأقبية والسجون وعلى ضفاف البحار وفي حمامات السباحة وفي السيارات والقطارات والطائرات. أفلام التعذيب ومعاشرة الحيوانات. عرفنا طرق ممارسة الجنس بين البيض والسود والصفر، وكذلك الأفلام التي تصور حياة شخصية مثل الأفلام الآتية من دول الخليج وقد صور فيها الناس أنفسهم بكاميرا شخصية.

خيال من ينتجون تلك الأفلام أوسع من خيالنا. تنوع مذهل وانفتاح على عالم لا ينتهي. كثيرًا ما فكرت في البنات الجميلات والرجال الأشداء. كيف لهم، بعد ذلك، أن يعيشوا حياة طبيعية؟ وهل يعيشون في بيوت مثلنا، يعلّمون أولادهم ويتسوقون، ويتحدثون في التليفونات، ولهم أصدقاء ويقومون بمثل ما نقوم به من أعمال؟ كانوا يعيشون في وضع استثنائي، خارج أطر الحياة. لقد استنفدت أيام التجنيد وفي نهاية الفترة وجدت نفسي غير راغب في رؤية أي فيلم، لقد بدا لي أن هذا الكم المرعب من الصور، قد أفرغ روحي من محتواها، وذات يوم جاء "توفيق السيد" مبتسمًا يشير بفيلم جديد، ولكنه فوجئ بأنني أعددت له كرتونته ووضعتها فوق المنضدة الصغيرة وفوقها جهاز الفيديو، جاهزة للحمل وقلت:

"لن أكون هنا أبدًا يوم الخميس. سوف أموت كل خميس".

* * *

(١٧)

أيام المدرسة الثانوية كنت أنزوي في ركني على ناصية شارع الحلو وأركز النظر في إحدى البنات، أجدها بعد قليل تستدير تجاهي وقد أخذ وجهها سمة جادة، وظهر توتر في ملامحها وقدر من الغضب، وفي أيام الكلية عرفت أن الأمر يتعدى حساسية بعض البنات وإدراكهن بأن ملامحهن سر لا يجب التحديق إليه. عرفت أن في ملامحي ما لا تستريح له البنات، كأنهن أدركن في هذا الوقت المبكر تلك الروح التي كانت تتشكل في كياني دون وعي مني. تعاملت الكثيرات معي بشكل طبيعي، لكن عند لحظة معينة تتغير الملامح وأدرك أن هناك حاجزًا من نوع ما، وأن القلق قد استبد بها، ذات يوم صارحتني إحدى زميلاتي بما يثيره حضوري من التوتر وعدم الاطمئنان وخففت الأمر ضاحكة: "رغم أن شكلك طيب". ربما ترك المنظار بصمته على ملامحي وطريقتي في النظر، فكل علاقة مع بنت أشرع فيها لا تتقدم غير خطوات قليلة ثم تتوقف. أدركت وأنا على وشك التخرج في الجامعة أن أي امرأة لن تشعر معي بالأمان؛ فربما اعتدت المراقبة وربما يتسلل مني حس التلصص دون أن أدري.

بمرور الوقت ظل وجهي يثير المشاكل. لم يكن البحث في ملامحي في المرآة حلاً، فلم أكن على علاقة طيبة بالمرايا. كانت تعيرني وجهًا مسطحًا وملامح خارجية مغايرة للصورة التي أكونها عن نفسي. كثيرون لم يستريحوا لي، وكثيرون قالوا بتلقائية "أنت من كوكب آخر"، ولم تفلح نظريات "إبراهيم الألفي" أن تفسر ما في حالتي من غرابة. كانت أفكارًا مرسلة عن تفرد الذات ومحنتها الخاصة وعلاقتها بالآماد القديمة التي عاشها الإنسان.

ما الذي يجعل الناس يقولون إنني من كوكب ثان، وأن ملامحي غريبة وتثير قلقًا غير مفهوم؟ كان هناك في الداخل كائن لا أملك إليه سبيلاً يعد نفسه للوجود، كائن حقيقي لم يكن أوان تجسده قد آن. لم أتخيل أنني قد لا أكون إنسانًا وإنما قشرة لطائر يعد نفسه للطيران. كانت الفكرة في ذلك الوقت جنونًا. كيف يمكن أن يكون هذا الجسد هو قشرة طائر يعد نفسه للطيران؟

في تلك الفترة كنت أعاني من تأثير ملامحي المنفر على من حولي. حاولت أن أكون منتبهًا قدر إمكاني وأطبع على صفحة وجهي تلك السمات البريئة التي يلصقها الناس على وجوههم في الأماكن العامة، أو أرسم تعبيرًا معينًا ارتحت له عندما أحدق إلى صورتي في الصباح. لكن لا يمكن للمرء أن يسيطر على الدوام. الروح الداخلية تستغل لحظات الغفوة وتفرض نفسها وترسم الجمل الداخلية على صفحة الوجه.

أطرف موقف ورطني فيه الكلام المكتوب على صفحة وجهي، حدث في الأيام الأخيرة لخدمتي العسكرية. لم يكن قد تبقى لنا غير أيام، وكنا نجهز "المخلة" لكي نسلمها للمهمات، عندما جمعنا قائد الكتيبة فجأة في طابور تفتيش. في هذا اليوم وقفنا في شمس يونيو الحارقة، في صحراء طريق السويس، مندهشين من هذا التحكم. ينتابني حس بالبرود في تلك المواقف وأنفذ الأوامر كأنني غير موجود. يومها وقفت في الصف الأمامي شاردًا. طلب إلينا قائد الكتيبة أن نخلع السترات وراح يفتش على قص الشعر وحلاقة الذقن وتلميع الأحذية. كنت أنظر إليه نظرة عادية، لم يكن في بالي أي شيء كنت أنفذ الأوامر، عندما وجدته يقف أمامي ويقول بطريقة مفاجئة أيقظتني من شرودي:

"هذه شغلتي يا خويا، هذه شغلتي، الجيش جاء بي ورقاني وعمل مني قائدًا لكي أفتش عليكم، فاهم؟".

عرفت في تلك اللحظة أن جملة ساخرة أفلتت من حصاري وكتبت نفسها على صفحة الوجه، وأن شرودي زادها وضوحًا، فلو كنت منتبهًا لأخفيتها، لكنها غافلتني وتعلقت بملامحي. يومها أخذت طابور ذنب، وكدت أحبس في الكتيبة ما تبقى لي من أيام تجنيدي، إلاَّ أنَّ "حسن" اتصل بمعارفه من الضباط فتم العفو عني وسلمت "المخلة" وأنهيت تجنيدي.

شكّل وجهي مشكلة لي طوال الوقت، فكيف يمكنني أن أظل مراقِبًا تلك التعبيرات التي تكتب على صفحته؟ تعبيرات حب وكراهية، ود،

وتأمل، كيف يمكنني مراقبة الكتابة التي تسرقني وتظهر على صفحة وجهي؟

بدأتُ عملي في محل العطارة بعد أن رفضت التقدم لنيل تعييني الحكومي. فكرت كثيرًا في السفر إلى الخارج، كما حاول أن يغريني "مجدي المغربي" قائلاً: "هنا روحك ستذبل، هناك عالم مفتوح". لكن الأمر لم يتجاوز حيز الفكرة، واستسلمت لحسي بأن الحياة قد خلت فجأة من الحركة وأن كل شيء يتكرر بلا نهاية. عندما تأتي الحادية عشرة مساءً ويستعد العمال لإغلاق المحل والمخازن ويتمم "حسن" على الإيراد اليومي للخزينة ويرتب كل شيء ثم يلقي عباءته على كتفيه مستعدًا لقضاء سهرته، لا أدري ماذا أفعل بنفسي ويبدو لي أنني لحظة توقفت، لا يمكنها الرجوع ولا يمكنها التقدم.

في تلك الفترة أصبح جو بيت أبي غير محتمل، بسبب صخب الأطفال وحالة الطوارئ التي فرضتها أم سعد لأن مريم تذاكر الثانوية العامة، فقاومت مشاعري بشقة خالتي التي أفسدتها أفلام "توفيق السيد" وعلاقاته، وقررت أن أعود للإقامة وحدي مرة أخرى، فالمدينة بدت خالية تمامًا، ولاح لي أن شقة خالتي يمكن أن تكون ملاذي.

تشكّل رتم حياة بدا لي بأنه نهائي. أُنهي عملي في المحل، أتجول في المدينة، أتناول عشاء خفيفًا في الخارج، أعود إلى شقة خالتي، أقرأ في الجرائد القديمة حتى الفجر، أنام وأقوم في الظهيرة، أذهب إلى بيت أبي. أتناول غدائي الذي تصر أم سعد على إعداده لي بنفسها، حتى في الأيام

التي أكسل عن الذهاب، تأتي بنفسها ومعها نصيبي من الغداء، ثم أشرب قهوتي وأنزل إلى المحل في الخامسة مساءً.

في محل العطارة أصبح وجهي مشكلة مرة أخرى. يبدو أن طريقة التعبير قد أصبحت أكثر وضوحًا وأعقد، وأثارت استغراب ناس لا أعرفهم. أحيانًا في أثناء وقوفي وراء الحاجز الذي يفصل العاملين عن الزبائن يتوجه إليّ شخص، وعندما يكون على وشك الحديث معي، يغير وجهته ذاهبًا إلى عامل آخر يسأله عن طلبه. لم أفسر تلك الظاهرة التي تكررت إلاَّ بأن التعبير المرسوم على وجهي منفر أو مخيف. ذات يوم سمعت ست فلاحة تسأل عمي دسوقي: "هو ماله يا خويا الجدع ده، مسهّم كده ليه؟" ابتسم عم دسوقي وقادها إلى أحد العمال. لم تتغلب على تلك النقيصة وتقبلتها بود، حيرني، غير "ابتسام". ربما لأنني أحببت قصتها ولم أعلق على شهوتها الجياشة، بل سعدت بها وكنت حرًا في التعامل معها. لا أريد أن أسترسل في أمور لست قادرًا على البت فيها، ربما كان هناك شيء سري بيني وبين "ابتسام" خلق تلك العلاقة التي كانت ظروفها أكثر غرابة من أي علاقة أخرى.

***

(١٨)

كان يومًا شتويًّا. شارع درب الأثر موحل. كنا وقت صلاة العشاء. لم يكن في المحل غيري. عم "دسوقي" جلس على مقعد عند الباب. كنت شاردًا عندما دخلت "ابتسام"، ترتدي عباءة رمادية اللون ويحيط وجهها إيشارب يحدد ملامح الوجه؛ الوجنتان البارزتان والعيون العميقة السوداء. لاحظت لمعان نداوة العرق على جبهتها رغم برودة الجو. وقفت تتطلع إليّ مترددة. انتباهي أوقف التعبيرات غير المدركة أن تطل من صفحة وجهي. اقتربَت من الحاجز الذي أقف وراءه، ونظرت إلى عيني مباشرة. لم أعتد هذه الجرأة، لم تستطع الكثيرات الصمود أمام نظرتي الفاحصة. "ابتسام" ثبتت عينيها لحظات وتركت لديّ انطباعًا بأنها لا تخاف تلك الكائنات الغريبة من أمثالي.

سألَت عن خلطة لعلاج الدمامل. قالت إن زميلتها أخبرتها بأن هذا المحل يعد وصفات وخلطات بلدي. سمع عم "دسوقي" الحوار فاقترب. ابتسم بطريقته الخبيرة وسألها بالتفصيل عن مرضها وعن الدمل ومكانه. ورغم أنها كانت تتحدث مع عم "دسوقي" غير أنها ظلت تنظر إليّ وهي

تصف الدمل. عرفت من تهربها من ذكر مكانه في الجسم، أنه في مكان حساس. من اللحظات الأولى كان حضور "ابتسام" مغريًا، فقد تركت في حديثها وفي نبرة صوتها شفرات استفزت حس المراقبة الذي كنت قد أهملته. وصف لها عم "دسوقي" خلطة الحلبة وعرّفها طريقة الإعداد، وأوصاها بأن تغلي المكونات في كوب ماء حتى تصبح عجينة ثم تضعها على الدمّل.

قضيت تلك الليلة ألوم نفسي؛ فقد كبحت رغبتي في المطاردة التي أثارها وجود "ابتسام". كان يمكنني أن أفعل أي شيء. لم يستمر ندمي طويلاً، فقد جاءت بعد يومين، وتوجهت إليّ مباشرة، وقالت إن الخلطة لم تأت بنتيجة. يومها عرفت عنها أشياء كثيرة. كانت تعمل موظفة في الإدارة التعليمية القريبة من بيت خالتي. أخبرتها بأنني أسكن هناك. حدثتني بأنها رأتني في مكان ما. قلت لها إنني أيضًا أشعر بأنني أعرفها من زمان. كانت عيناها تزداد لمعانًا وتنفرج شفتاها قليلاً، دون وعي، وتبدو كأنها منتبهة وغائبة في أفكارها في نفس الوقت. وصفتُ لها بيت خالتي، وقلت لها إنني أحتفظ هناك بأعشاب خاصة لا تخرج إلاّ للزبائن المقربين، يمكن أن تمر في أي وقت وهي خارجة من الإدارة تأخذ منها ما تشاء. مجرد كلام قلته عفوًا، شجعتني عليه طريقتها في النظر والحديث، لم أكن أعرف أنه بداية علاقة طويلة.

كان ذلك في المساء قبل أن أنزل إلى محل العطارة، عندما سمعت نقرًا على الباب. كنت متأكدًا أن "ابتسام" سوف تجيء غير أنني لم أتخيل أن

يحدث بتلك السرعة. كان اليوم شتويًّا، والهواء له رائحة التراب. عندما فتحت الباب لاحظت ارتباكها. كان نفسها متوترًا. صدرها يعلو ويهبط. عرفت بعد ذلك أنها تحب لحظة الخطر. جذبني البريق الأسود في عينيها، لم تكن لعيني "سومة" مثل هذا البريق المتحفز الذي يتلألأ كأنه يغلي. لم أتخيل أن الأسود له هذا التلألؤ الداخلي العميق. كل ما فكرت فيه في تلك اللحظة أن أدعها تستريح.

قلت مازحًا:

"لا بد من أن أحدًا يجري وراءك".

نظرت إليّ غاضبة، وظهرت الشراسة التي سوف أتعرف عليها بعد ذلك. كانت ترتدي نفس العباءة الرمادية ونفس الإيشارت. جلست على الكنبة في الصالة ثم نظرت إلى الشرفة مغلقة الزجاج، وقالت ببراءة: "شقتك؟" كانت تحاول أن تسيطر على نفسها. أخبرتها بأنها شقة خالتي. لم أترك فرصة للتراجع. قلت لها لن أذهب اليوم إلى الوكالة. وقبل أن تعتذر عن مجيئها في وقت النزول إلى العمل، قلت لها إنني أعمل لمجرد الإحساس بأنني أعمل. في عائلتنا لا يمكن لأحد أن يبقى جالسًا، لا بد من أن يوهم نفسه بأنه يعمل. وحكيت لها نتفًا من حكايات العائلة. بدأت تستريح، وقالت لي إن لبخة الحلبة لم تنفع، وأنها جربت لبخة الترمس الناشف أيضًا حسب وصية عم "دسوقي". قلت لها اتركي الدمل سوف يشفى وحده. كل هذه اللبخات يمكن أن تنجح أو تفشل، كله حسب التساهيل.

سألتني بدهشة: أين الأعشاب؟

قلت: أعشاب؟

قالت: "أنت قلت عندك أعشاب نادرة".

ارتبكت للحظات، هل تتكلم بجد؟ هبت فكرة محت الغرابة وقربت المسافة. قلت:

"أشوف الدمل حتى أحدد له نوع العشب".

ابتسمت: "أنت عبيط؟" قلت: "بالضبط". وكانت تلك البسمة الخفيفة بداية تخلصها من التوتر؛ بداية حياتنا معًا.

ما زلت أتعجب من تلك الحرية التي عشتها في حضورها. تلك الصراحة والحكايات التي عرفتها لأول مرة في أثناء حديثي معها. من أول لحظة وبغرض نفي الحس بالغربة حكيت لها عن العائلة؛ عن أبي وعمي "صلاح" وعن "مريم"، وعن أولاد "حسن" الذين يملئون البيت صخبًا، حكيت لها عن موت أمي ورائحة الينسون. كانت تنصت وهي مبتسمة. وبعد فترة قصيرة، نجحت في طمأنتها، لأنها قامت، وأعدت كوبين من الشاي.

في المرات التالية لم يخف اضطرابها وهي تطرق الباب في الظهيرة بعد انتهاء عملها في الإدارة التعليمية. كان يستبد بها قلق وتوتر، وفي غمرة تلاحق الأنفاس الذي تثيره المخاوف والحس بالمغامرة، تترك لي جسدها. أدركت بالتدريج، أنها لحظتها السرية. لحظة الاضطراب بعد طلوعها من السلم مباشرة هي اللحظة التي تحب أن تمارس الحب فيها؛ اللحظة المخيفة التي تندفع إليها كأنها تلقي بنفسها في بحر.

أدركت ذلك بمرور الوقت، وأصبحت أنتظر شكلها المضطرب، واقفة أمام الباب، وبدون كلمة آأخذها في حضني. الغريب أن جسدي أيضًا تحورت عادته المتمهلة وأصبحت تلك اللحظة هي علامته. أصبح مثيرًا هذا الاضطراب، هذا الارتفاع والانخفاض للصدر ولمعة ذهول تطل من العينين. في البداية نمارس الحب باندفاع وتسرع، كأننا نهرب من شيء ما، ثم بعد ذلك نتمدد صامتين.

عشت المتعة في تلك اللقاءات كأنها لحظة غياب، اختلاس. مِن مَن؟ من ماذا؟ لم يكن هناك أحد، لكن الجسد لا يتفتح إلاّ في تلك اللحظة. ربما تعود على السرقة، قبل أن يصحو من غفوته. هذا التوافق حوّل ما بيننا من علاقة غريبة معقدة إلى رابطة قوية، خفية علينا. تتجرد "ابتسام" من ملابسها كاملة بعد أن تنتهي اللذة، تغفو لفترة قصيرة ثم تقوم عفية ومنتبهة وكاملة الحيوية، تقول أحيانًا بجرأة: "تعال أعلمك"، ونغيب في ممارسة طويلة للحب. تبدأ بقضمات خفيفة من أطراف الأسنان على الجلد، تعيد الحيوية للجسد مرة أخرى، بدون عطارة وبدون الوصفات التي تعيش أسرتي على بيعها. يشتد الجسد مرة أخرى ببطء وانتباه، ونعيش لحظة أخرى لها حس مغاير.

لا يمكنني تحديد اللحظة التي أدركت فيها أن ابتسام هي الأنثى التي أريدها، لكن لا بد أنها كانت في اليوم الأول، عندما رحت أتحدث معها لكي أخفف عنها الاضطراب، قبل أن أكتشف أن الاضطراب هو سرها. يومها تحدثت عن نفسي لأول مرة في حياتي، كأن شخصًا آخر

رافقني طوال الوقت، وتعرف عليّ، وأخفى معارفه عني، وباح بها في وجود "ابتسام". يومها حدثتها عن الفراغ وعن تجارة العطارة وعن كراهيتي لروائح النباتات وحبي للتصوير. يومها اكتشفت أنني كنت أريد طوال الوقت أن أكون مصورًا، أحمل الكاميرا وألتقط اللحظات السرية للناس. أخبرتها بأنني سأفتح استديو هو الأول من نوعه في المدينة لتصوير البنات. لن أصورهن عاريات في البداية، سوف أبدأ بتصوير وجوههن. قلت بفخر أنا الوحيد في هذه المدينة الذي يمكنه أن يعرّف كل بنت على جمالها الخاص. يمكنني أن أحاور الملامح حتى تبوح بوجهها الحقيقي. أوغلت يومها في الكلام، وقلت لها: يمكنني أن أضع يد كل فتاة على سرها، على روحها الحقيقية. بالتأكيد سوف تكون هناك بنات راغبات في أن يتعرفن على جمال أجسادهن، وهذا هو الجناح السري لمحل التصوير، لكن الوقت ما زال ممدودًا، سوف أدبر الأمر وسوف أطلب ميراثي وأفتتح الاستديو.

الغريب أن القصة التي حكيتها لكي أخفف من اضطراب ابتسام، والتي كنت أكتشفها لأول مرة، كانت تعبر عن أعمق أعماقي، ولأول مرة في حياتي أشعر بتلك بالخفة، وبأنني أعرف طريقي، والدنيا واضحة ومنيرة. كنت على وشك التجسد، وأوشك حسي بالغربة أن يتلاشى. كان يمكن لتلك اللحظة أن تساعدني (لو انتبَهْت) على التخلص من هذا التكون الباطني للغراب، وتحرف المسار في اتجاه آخر. لكن التبصر قليل، والحياة لها قانون داخلي تقودنا إلى طرق أخرى، كما يقول "إبراهيم الألفي" عندما يتحدث عن الإرادة العمياء للوجود.

منذ تلك اللحظة شعرت بأن ارتباطي بابتسام عميق له سمات الطبيعة، وبدت علاقات الماضي صورًا باهتة، بجانب قوة الحضور الذي أحسسته في اليوم الأول. صحيح أن تلك المشاعر بدأت تتوارى بالتدريج، ويحيط باللقاءات نوع آخر من الاهتمام، لكن سيبقى أنني عرفت على الأقل الطريق الذي لم أسلكه في حياتي.

* * *

(١٩)

تقول ابتسام إنها بمجرد أن تدخل من باب الدار، وتطلع إلى غرفتها فوق السطوح، ترغب في خلع ملابسها كاملة. رغبتها في التعري لا يمكن فهمها مثل الكثير من تصرفاتها. كان جسدها قد أصبح مشكلة منذ الأيام الأولى لنموه، لكنه لم يصبح كارثة إلاَّ عندما مات أخوها "محمد" وهو راجع من بورسعيد في عام ١٩٧٦.

تتذكر التاريخ لأنه عام حصولها على الإعدادية. كان أخوها قد مات بالقرب من الهيش عند بحيرة المنزلة، بعد بورسعيد بعدة كيلومترات. لم يعثروا على قاتله. لم تقدر أمها التي تعاني من ضعف البصر، على الذهاب إلى القسم والتعرف على الجثة. الجيران قاموا بالواجب. أصرت "ابتسام" أن تصحبهم. رأت جسد أخيها. كان مذبوحًا من عند الرقبة. لن تنسى أبدًا ذلك المشهد، الذي ترك لها إحساسًا بالإهانة. لحظة مرعبة نثرت في حياتها مشاعر غامضة، عجزت عن فهمها أو التعامل معها. لم يحدث لها شيء أثناء رؤيتها لجسد أخيها، غير رعشة خفيفة في شفتيها وتنميل في أطرافها. ما حدث، حدث بعد ذلك، في ليالي

الصيف عندما لم تعد تتحمل جسدها وترغب في التعري. قالت إنها شعرت بجسدها يفور مثل عجين خمران.

في العام التالي دخلت مدرسة التجارة في شارع الجلاء. كل يوم تقطع الطريق يرافقها القلق كالطيف. عاشت على إعانات إحدى قريبات أمها، ونجار كان زميل أبيها في بناء البيوت. ظل القلق يطاردها مثل سخونة مكتومة في الجسد، حتى جاء "مولد السيد البدوي" وهي على وشك الحصول على دبلوم التجارة. اكتشفت طريقتها للتخلص من القلق. ارتدت جلبابًا فلاحيًا من صندوق أمها، وعصبت رأسها بمنديل مثل بنات الريف، واندست في قلب الصخب. تركت نفسها تتصرف على هواها، تمشي وسط الزحام أو تجلس في الخيام، وتركت جسدها يستريح للمداعبات المختلسة. تعلمت منذ ذلك الوقت كيف تعبث بجسدها وتدعه يعبث بها. أصبحت تلك الطريقة في التخلص من القلق سرًا لم تبح به لأحد. قالت إن جسدها كان يثير حولها هذا الصهد الذي تطلقه الأفران، وبفطنة اختارت لتلك المغامرات كبار السن حتى يمكنها أن توقفهم عندما تريد.

تعلقت بمقام السيد البدوي. تذهب إلى هناك، بإيقاع داخلي. تشكو حالها وحيرتها وتطلب العفو عن ذنوبها. أحيانًا تجد نفسها مشدودة إليه كأنه يناديها. تجلس في الركن تتحدث إلى صاحب المقام الذي تصورته نورًا في بطن الأرض، موقنةً أنه يسمعها، وأنه سندها الوحيد في الحياة. رغم ذلك لم تتخلص من الإهانة بأن دم أخيها راح هدرًا، ولم تقدر على

التخلص من القلق الذي أثاره هذا الموت.

هل يمكن للمرء أن يموت هكذا بلا ديّة؟ أحيانًا يصعد السؤال قاطعًا سرد الحكايات، وتظهر في عينيها دهشة وجمود، وتصمت كما لو كانت تتخيل الحياة فضاءً خاليًا من العدل، مكانًا بلا ضفاف، يمكن أن يحدث فيه أي شيء. هذا العبوس الذي رافقها هو ما ألقى في خيالها تلك الصورة الداكنة عن نفسها، حتى إنها لم تصدق أن بنات "ثالثة ثالث" في مدرسة التجارة اخترنها عروس الفصل. كانت الأوصاف التي تحدثن عنها تخص بنتًا أخرى، وجهها أسمر وفمها تبرز منه سنتان بفلجة خفيفة وعيون واسعة سمراء، وشعر طويل أسمر، تحسرن أن الحجاب يخبئه. كانت تشعر وقتها بأنها سمراء عابسة الروح، لا تكف صورة أخيها المذبوح عن زيارتها.

بعد حصولها على دبلوم التجارة، تقدم لخطبتها شاب يعمل نجار مسلح. وافقت أمها على الفور. عاشت في شقة صغيرة في العجيزي عامًا واحدًا، حملت خلاله في بنتها "سها". سافر زوجها إلى العراق، وغاب عامين دون أن يرسل لها مصاريف، كأنما نسيها. بحثت عن خيط يصلها به. سألت أقاربه وزملاءه الذين يعودون من هناك. عرفت أنه يعمل مع الجيش العراقي، لكن أحدًا لم يتمكن من الإجابة عن سؤالها: لِمَ أهملها كأنها لم تكن زوجته، كأنما لم تكن له طفلة تركها رضيعة؟ ذات يوم طرق باب شقتها مُحضر، وطلب منها التوقيع على استلام ورقة الطلاق. لم تعرف إن كان زوجها في مصر أم طلقها من هناك.

وقعت بخط مكسر على الورقة الرسمية وأدركت أن أي سؤال سيكون متعبًا للقلب أكثر من ترك الأمر كما هو. طلب إليها والد زوجها وإخوته الصبيان أن تتنازل عن الشقة حتى لا تتبهدل في الأقسام.

عادت للعيش في بيت أبيها. وتحملت أشد فترات حياتها غمًا وحيرة. حسها بالقلق أصبح طاغيًا وتناقصت فترات نومها حتى أصبحت مثل الأطياف. نحلت واستبدت بها شهوة أن تستدرج الرجال. عرفت أنها تحمل ميلاً فطريًا للخطر، كلما كان الخطر شديدًا كلما استفز جسدها وفار مثل العجين. كان الأمر غريبًا، لم تستوعبه، وطاوعته. ارتكبت أعمالاً خطرة وأحيانًا ورطت نفسها في مواقف كان يمكن ألاَّ تخرج منها. ذات يوم طلعت شقة في عمارة جديدة خلف جسر السكة الحديد. كان الرجل الذي قادها إلى هناك، قد جهز لها فخًا، ودعا ثلاثة من أصحابه، لمحتهم قبل أن تدخل. "الحيوان، ابن الحيوان"، ونزلت تجري في الشارع غير عابئة بنظرات الناس حتى وصلت محطة السكة الحديد. جلست وحدها على الرصيف وبكت.

تلازمت تلك الشهوة مع رغبة خبيثة أن تحرق نفسها. لم تفكر في وسيلة غير النار للتخلص من نفسها. لا تطيق البقاء في الدار منذ أن يطلع النهار. توصي أمها بالبنت الصغيرة، وتنطلق إلى السوق، تعمل أي شيء، في المسح والكنس، وحمل البضائع. بعد انتهاء يومها لا بد من أن تزور المقام الأحمدي، ترتمي في الركن، ترفع عينيها تجاه النحاس الأصفر اللامع، وتناديه في سرها أن يساعدها. بعد تنقل بين الأفران

ومحلات الفراخ ومحلات الملابس، استقرت في كشك من أكشاك بيع الملابس المهربة من بورسعيد، مملوك لواحد من أصحاب أخيها، قال إنه يحفظ العيش والملح.

عرفت أن أخاها كان يتاجر في البضائع المهربة من بورسعيد. كان قلبه جامدًا، لا يخاف من أحد، ويبدو أن خلافًا حدث بينه وبين شركائه فذبحوه. وصلتها القصة دون أن تُحكى بالترتيب. عرفتها من تفاصيل متناثرة فلم يجرؤ أحد على رواية القصة كاملة. كان يجور على حق أصحابه، فتكتلوا ضده. لم تصدق تَجَبّرَه وقسوته في تحصيل نقوده، ولم تسمح لأحد بالخوض في سيرته، كان يمكنها أن تمسك سكينًا وتدبّه في كرش من يتحدث عنه بسوء. أيقظت تلك النتف من الحكاية، شق السكين حول رقبته، وحضرت ملامحه الغاضبة التي بدت على وشك البكاء. "ما كان يجب أن تراه". كثيرًا ما قالت لنفسها، ولكن ماذا تفعل في أهوائها؟

كان الكشك كابوسًا. قالت: "طول عمري لا أحب أن يأخذني أحد بالعافية، أترك له نفسي بمزاجي، لكن عافية أذبحه على طول".

لخصت تلك الكلمات فترة صعبة من حياتها، وكشفت المقاومة التي أبدتها لصديق أخيها الذي أراد أن يحصل على جسدها مقابل ما يدفعه من أجر لقاء عملها. ذات يوم طلب إليها أن تذهب إلى المخزن لتُحضر البضاعة الجديدة. ما إن دخلت الغرفة الضيقة المطلة على بير السلم لبيت قديم، حتى رأته يقف وراءها وقد أغلق الباب. لحسن حظها لمحت

مقصًا بجانب قطع من القماش على الرف، تناولته بسرعة ورفعته في وجهه. تراجع قليلاً، ثم نظر إليها بجدية وقال ساخرًا: "الله الله، طلعت دموية مثله".

غادرت المخزن تاركة حقيبة يدها في "الكشك". مشت تبكي في زحمة شارع الخان. يومها قابلها "المقام". كانت في طريقها إلى الدار، لكنها وجدت نفسها في "المقام"، دون أن تعرف كيف سهت حتى وصلت إليه. جلست في الركن، وبكت. يومها شعرت بالوصل واشتكت بغضب، وباحت بما في قلبها لمن يرقد في جوف "المقام". لأول مرة تشعر بقربه، كان هناك يملأ حضوره المكان، ويتأثر لحكايتها. "قلت له يرضيك؟ يرضيك أعيش في الغُلب. أنت ترى حالي ولا تساعدني". ظلت تبكي حتى دخل الليل.

رجعت إلى الدار وجدت "إسماعيل" صاحب "الكشك" يجلس على كنبة بجوار أمها. أعاد إليها حقيبتها معتذرًا، وطلب إليها أن تسامحه، من أجل العيش والملح الذي أكله في هذا البيت، وإن كانت لا تزال زعلانه، فهو مستعد لأي شيء، حتى الزواج. قالت غاضبة: "لا جواز ولا نيلة، اتركني يومين".

الغريب أنه بعد يومين وهي تستعد للذهاب إلى "الكشك" مرتبكة وخائفة، قابلها عم "حسين" الساعي وأخبرها أن اسمها نزل في تعيينات التربية والتعليم.

عام ١٩٨٣، أسعد أعوام عمرها. أيقنت أن هناك روحًا كامنة في

قلب الحياة، تراقب كل شيء وتتدخل لتنصفها في النهاية. جهزت أوراق التعيين بحماس، وتبدلت مشاعرها. في مقابل القوة التي تجعل الحياة هباء، هناك قوة أخرى تصون الحياة من الانفراط، وإن كانت قد أصبحت تحت رحمة الهباء فترة طويلة، فإن القوة الرحيمة قد انتبهت إليها وها هي تنقذها، وأرسلت لها الحماية: "التعيين". مرتب أول الشهر. أليس هذا حماية لها إلى نهاية العمر؟ أليس هذا إنقاذًا من البهدلة في المحاكم للبحث عن نفقة الطفلة، ومن المرمطة في الأكشاك؟ استلفت خمسين جنيهًا واشترت لبنتها فستانًا جديدًا، ومرت على "إسماعيل" في الكشك وأخبرته بأنها سوف تصبح موظفة، وأن عليه أن يبحث عن واحدة أخرى يأكلها.

الأعمال في الإدارة بسيطة؛ تسجيل الإجازات. يزيد الانشغال في الصيف في أثناء سفر المدرسين ليعملوا في دول الخليج، أما في الشتاء في أثناء الدراسة فالإجازات ممنوعة. انفتحت الدنيا، وبدأ شغل الإبرة، والتفكير في مستقبل البنت وفي مستقبلها هي نفسها. البهجة لا تروح بالكامل، لكنها تتبدل. يألفها المرء ويعتبرها بعد ذلك إحدى مكاسبه. بعد عدة أشهر من العمل في الإدارة بدأت حياتها تستقر. أدخلت البنت حضانة، وقسمت راتبها الصغير على المصاريف، وحاولت أن تدخر منه جزءًا، لكن جسدها لم يتركها في حالها، كان يصهد ويطلب منها أن تتحرر من الملابس. كانت قد أصبحت موظفة وعليها ضبط تصرفاتها. تبكي أحيانًا من التعب ثم تقوم وتقف في الطشت عارية وتصب على جسدها حلة ماء بارد حتى ترتعش.

أذهلتني صراحتها وهي تحكي أدق أسرارها، تريد أن تفهم أكثر مما تريد أن تتحرر من الذنب. لم تكن تشعر كثيرًا بالذنب، كأن فكرة الذنب لا وجود لها في حياتها. حس الحيرة هو السائد، واستغراب نفسها. كان سؤالها الصعب: لماذا لم أكن مثل باقي البنات؟ كنت أترك لها مجالاً لتحكي عن نفسها كما تشاء. قلت لها ذات يوم: "لم لا تفكرين مثل باقي الخلق في الزواج؟" ردت بانفعال: "الزواج؟ لا يمكن، الزواج مصيبة". تحركت من فوق الكنبة كأن الفكرة مؤرقة غير مناسب لها الجلوس، ثم قالت: "مرة واحدة تكفي". وعادت لتجلس. قالت: "كنت صبية صغيرة، لم أكن أراه، كان يعود بالليل مخدرًا، مرة كاد أن يفتح رأسي بالشاكوش". صمتت ولأول مرة تظهر شفقتها على نفسها، لأول مرة يختفي العناد الذي يسم حديثها. يومها تحدثت بحزن عن الليالي الطويلة التي نصحت فيها نفسها أن تتزوج وتتستر مثل باقي الخلق، لكنها تجد جسدها يصهد، وتشعر بالغضب والنقمة وتصبح على وشك أن تلقي بنفسها في النار.

* * *

(٢٠)

في البداية عندما كانت "ابتسام" تختفي، يتمرد جسدي ويرفض النوم، وأشعر بأنني معلق في فراغ. تصبح الأيام بلا معنى وتكر مثل أكياس فارغة. لم أكن أعرف كيف أصل إليها، فقد حرّمت عليّ الذهاب إلى الإدارة التعليمية، ولم يكن الأمر سهلاً أن أصل إلى بيتها في الجهة الأخرى من كوبري الخادم. أرادت أن تحتفظ بسكة الهروب مفتوحة، أو أن تُبقي حياتنا خفية.

كان اختفاؤها يرعبني في الفترة الأولى. ماذا لو تركتني؟ فأندفع بعناد إلى البحث عن سبل أخرى للعيش. أزور "إبراهيم الألفي" الذي أصبح مشغولاً بإعداد الدكتوراه في فلسفة شوبنهاور، أو أقضي وقتًا في البيت أسمع حكايات "أم سعد" عن الحارة، أو أناكف "مريم"، أو أتجول في المدينة وأستعيد عادة القعود في المقاهي. لكن كل شيء بدونها يصبح مضجرًا، وبلا معنى. أنزل في المساء كالمنوم إلى العمل، أسجل بعض الحسابات. أحيانا يأتي المحاسب وأضطر إلى أن أرافقه أثناء فحصه للدفاتر. أعمال بسيطة لكنها في أوقات اختفاء "ابتسام" تأخذ ثقلاً

وتكشف اختفاء المعنى من الحياة.

لكن ذلك لا يستمر طويلاً، فبعد أيام قليلة أسمع في الظهيرة، النقر المنغم على زجاج شراعة الباب. في إحدى المرات طالت فترة الاختفاء. قررتُ الذهاب إلى الإدارة التعليمية. المبنى قديم من طابقين. بيت أحد أثرياء الزمن الملكي. لم يعد في الحديقة القديمة غير بعض النخيل الأفرنجي تحيطه أكشاك خشبية يعمل فيها الموظفون. الشرفة القديمة رصت فيها مكاتب من الصاج وتغص بالموظفين المنكبين على الدفاتر. رأيت ابتسام تقف بجانب كشك خشبي. لمحتني فانصرفت عن زميلتها وقابلتني مسرعة وعيونها السوداء تتسع: "يا لهوي!! قلت لك لا تأتي هنا أبدًا، ستفضحني".

حاولت أن أعاندها بالتلكؤ، فقالت برجاء: "أبوس إيدك امشي من هنا". كنا نقف بالقرب من باب غرفة مكدسة بالملفات. كان الجو حارًا، ورائحة عطنة تصدر من مكان ما. قبل أن أغادر المكان ألقيت نظرة عابرة داخل الغرفة. الحوائط تحيطها دواليب إيديال، مرصوص عليها ملفات تبرز منها الأوراق. الفضاء مغمور بالمكاتب، والضوء يدخل من نوافذ بدت كأنها فرجات داخل الدواليب. شعرت بأنني نزلت إلى عالم تحت الأرض. كنت على علاقة بكائن من عالم آخر.

جاءت في الظهيرة، غاضبة: "أنت مجنون، تريد أن تفضحني؟" ولامتني لأني عرضتها لموقف بايخ، وأنها لم تخلص من سؤال زميلاتها عمن أكون. اضطرت إلى أن تدعي أنني قريبها. في قلب الصخب الذي

أثارته في هذا اليوم، لم أتمكن أن أعرف لماذا تختفي على هذا النحو. يومها اتفقنا أن أوصلها إلى بيتها في سيارة أجرة، على أن أبقى داخل السيارة حتى تدخل البيت.

عندما أفكر في تلك الفترات اللامعة من حبي لابتسام أتساءل: متى حدث التغير حتى أصبحْت أتهرب من لقائها ولا أهتم بأن أجد ورقة صغيرة تحت عقب باب شقة خالتي مكتوب عليها بخط ابتسام الركيك: "حضرت ولم أجدك". أمسك تلك الوريقات الصغيرة وأندهش من الجملة التي لا تتغير. وأتساءل لم لا تكتب: "أنت فين؟" أو "عاوزة أشوفك"، أو "استناني بكرة". أي شيء غير تلك الجملة التي ضايقتني لأنها توحي بأن شخصًا يراقبني.

أقضي وقتًا طويلاً في تأمل العبارة وفي تأمل خطها، إنها تشتمل على الضدين؛ الحضور والغياب. وتعني: "عليك أن تكون حاضرًا"، "غيابك خطيئة"، "عندما أحضر يجب أن تكون متواجدًا". تتجول في خيالي على هذا النحو وتثير كراهيتي لنظام وحياة الموظفين التي يستقر فيها شبح أنظمة المعسكرات. هذه الجملة تنفي ما بيننا من ألفة، وتكشفت لي أن نمط الحياة الذي نهرب منه يتسلل دون وعي ويصل إلى الجمل الودية، ويطبع الرسائل العاطفية بطابع الخطابات الحكومية.

تبدلت المشاعر، هذا ما تبقى من انطباعي عن تلك الجملة التي كتبتها "ابتسام"، أحيانًا على ظهر علبة كبريت أو هامش ورقة صحيفة أو منديل ورق. كان ضيقي منها يجعلني أبتعد ولا أهتم بالحضور

والغياب. أدركت أن الطبقة اللامعة التي منحتها ابتسام لحياتي، بهتت حتى تحولت هي الأخرى إلى لون داكن. عندما يتصادف أن أكون متواجدًا لحظة ظهور الطرق المنغم على زجاج شراعة الباب، تعاتبني بقسوة وتصر على ممارسة الحب عدة مرات، بعنف وحس بأنها تفقد ما أعدت نفسها أن تعيشه فترة طويلة.

أخذت مشاعري تفتر، لكن جسدي يتحرك بدافع الميل إليها الذي ما برئت منه قط. في أثناء الحديث بعد ممارسة الحب، يحط عليّ هم وأتعب من ثرثرتها حول تفاصيل حياة الموظفين. تبصرني خلافاتها في العمل مع زميلاتها ورؤسائها بطباعها الحادة، وتفتح عيني على المخاطر التي تنتظرني، أحيانًا تحتد وتظهر رغبتها في الاستحواذ وحسها بالخوف، وأحيانًا تبكي بلا سبب. كنت عاجزًا عن فهم نفسي أو فهمها.

في أيام أخرى، أشعر بحنين مفاجئ إليها، وتنبعث رغبتي حية كأنني لم أرها من زمن. أنزل بسرعة إلى الإدارة، وأرسل لها بائعة الدوم التي تقف أمام مدرسة الإصلاح، تأتي ابتسام حزينة لأنني لم أعد أعبأ بها. مرت تلك السنوات بسرعة، كأنها لمحة. تساقطت الأيام خفية في لقاءات ابتسام ومقاومتي للأحاديث المتواترة في البيت عن زواجي.

أصبح موضوع زواجي أساسيًّا في البيت، عندما كانت مريم على وشك التخرج في الجامعة. وصل الأمر إلى حالة الإعلان في مساء أحد الأعياد في شقة محسن، عندما راح يحدثني بجدية عن أنني لا بد من أن أفكر في الزواج قبل فوات الأوان. توقفت عند عبارة: "فوات الأوان".

ناقشته ساخرًا: هل للزواج أوان؟ أنت ترى بشرًا يتزوجون بعد الخمسين وهناك حكايات عن ناس يتزوجون بعد ذلك، الأوان مثل الذهاب إلى العمل في الثامنة، حد أقامه الناس، نحن من نخلق "الأوان"، كل واحد يحدد أوانه بمزاجه.

في المناسبات العائلية يبدأ موضوع زواجي بإشارة إلى تقدمي في السن، والحياة الفارغة التي أحياها، وأن الأولاد يمكنهم أن يشغلوني. في المحل أحيانًا يداعبني حسن بطريقته الفظة وهو يمسح على شاربه الخشن: "العضو الذي لا يُستعمل يضمر"، أو يقول ساخرًا: "البلبل بتاعك باين عليه خيبان". كلمات خائبة، ينفجر بعدها في الضحك ويثير شهية العمال ليتبادلوا تلميحات جنسية تكشف عن حياة فقيرة لا يمكن للجنس وحده أن يغنيها. أراقب تلك التلميحات وأشعر بأنها تحمل رغبة في حياة لا نعرف كيف نعيشها.

بدأت أتوجس من ذكر الزواج لأنه في نظري كان ميلاً إلى حبسي أكثر منه رغبة في تنظيم حياتي. كنت أقترب من الأربعين، وبدأت أنتبه إلى خطورة الأمر لأنه تواكب مع تلمحيات "ابتسام" عن أننا يمكن أن نعيش معًا.

في البداية أشارت إلى الموضوع من بعيد، ثم قالت بوضوح ذات يوم: "أنت خائف من أخيك". العبارة مفاجئة، أشارت إلى فكرة خفية من أفكاري. "تخاف من العائلة، وتنظر إليّ على أنني لست من مقامك". كيف عرفت "ابتسام" هذا التحسب غير المرئي. كيف وصلت إلى الفكرة

بفطرتها. يومها حولت الموضوع إلى مزاح وقلتُ لها إننا معًا، وإن وصلنا إلى اتفاق أن نتزوج، سنفعلها.

كنت جادًا. إشارتها إلى الخوف أيقظت العناد، ودفعتني إلى أن أفكر جديًا في أن أتزوجها. لكن الخوف من البيوت هو ما يبعدني. صحيح كنت خائفًا، ليس من الزواج أو من "حسن" أو من العائلة، بل من إقامة حياة مثل التي عشتها، بيوت تبدأ بالإفطار واصطحاب الأطفال إلى المدرسة وحساب الفواتير ومواعيد ممارسة الجنس وصلاة الجمعة بجلباب أبيض.

مسار الأحداث لا يمكن حسابه، فقد جاءت أحداث أخرى أبعدت الحديث عن زواجي قليلاً. كانت "مريم" قد أنهت دراستها الجامعية وأرادت أن تسافر لتعيش وتستكمل الدراسات العليا في الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة. تصرفات "مريم" أهم من زواجي وأشد خطرًا. سيرة النساء أكثر تأثيرًا في العائلات من سيرة الرجال؛ حياتهن ومصيرهن أمر مهم بالنسبة إلى السمعة، وعندما تكون عائلة تجار فإن الأمر يصبح أكثر أهمية.

دب الخلاف في البيت بسبب إصرار "مريم" على السفر، لكن "محسن" احتوى الموضوع بسرعة ووعد "حسن" أن يقنع "مريم" أن تدرس هنا في المدينة، لكن الأمور تطورت، بسرعة عندما تحولت رغبة "مريم" فجأة من استكمال الدراسات العليا إلى العمل في مكتب الإذاعة البريطانية في القاهرة. سافرت دون أن يعرف أحد، واجتازت اختبارات

القبول، ووقعت عقد العمل، واستأجرت مع زميلاتها شقة في الزمالك، تم كل شيء بعيدًا عن العائلة. وقع الأمر على "حسن" وقوع الصاعقة.

أحداث الحياة العائلية لا تخصني، وعندما كانت "مريم" تحدثني عن رغبتها في العمل في مدينة أخرى، كنت أتساءل سرًا، لِمَ تصر على مغادرة البيت؟ لِمَ تريد أن تُنشئ حياة خاصة وهي تعرف أن مصيرها منذ الآن هو الزواج وتربية الأولاد؟ كان الأمر بعيدًا عني، لكن الوشيش الذي يصلني في عزلتي، يوترني ويفرض عليّ انتباهًا رغمًا عني، حتى حدث ذلك الصدام الذي دفعني خطوة كبيرة باتجاه مصيري.

ليلة باردة. الحوار بين "مريم" و"حسن" يتم في غرفة الجلوس في شقة أبي، بعد أن فشل "محسن" في إقناعها. تصلني منه أصداؤه في المطبخ في أثناء إعدادي كوب شاي. "أم سعد" تغسل المواعين وتتمتم بما تحفظ من آيات القرآن. شعرتُ بأنها خائفة وتعجبت من خوفها. بعد ذلك عرفت أنها تعيش في البيت أكثر مما أعيش. مخاوف "أم سعد" دفعتني إلى الإنصات إلى الحوار الذي أخذت نبرته في الارتفاع.

قالت "مريم" إنها لا تنوي العمل راقصة في شارع الهرم، سوف تعمل في مكتب الإذاعة البريطانية وهو شغل محترم. لكن ذلك لم يكن الموضوع. المشكلة أنها أنجزت كل شيء دون مشورة أحد. سافرت واجتازت الاختبارات وتصرفت في حياتها كما تشاء، هذا ما يهين "حسن"، ويزيد من حدة الحوار ويعطيه لمحة الغضب.

كانت "مريم" تعصب شعرها بمنديل وردي. بدت لي أنها قد نحلت، وأنفها أصبح طويلاً مثل أنف أبيها ولم يكن بها أي ملمح من عمتي "سعاد"، من أين جاءوا بهذا الشبه؟ كانت تتحدث بعصبية مصرة على أنها لم تخطئ، تلوح بيدها وهي تشرح موقفها. أدركت أنها لن تتراجع.

أقف في وسط الصالة. كوب الشاي في يدي. صمت في غرفة الجلوس. "حسن" متوتر، ويبدو أن "مريم" قالت شيئًا جعله يتعصب وتغشى وجهه تلك الحمرة التي تظهر وقت الغضب، وتطول بياض العين والأذنين. قال إنه لن يسمح لها أن تخطو خارجًا. لن يقولوا بنت عبد السلام البري تعيش وحدها وتسير على حل شعرها. قالت مريم صارخة: "حل شعري؟" "سوف أحلقه، لن يبق في رأسي شعرة واحدة حتى أحلها".

كان "حسن" مندهشًا من طريقة مريم في الكلام، لم يكن قادرًا على الرد عليها، ولكنها تركت الموضوع وتركت الغضب يقودها، قالت له: "حرام عليك تريد أن تكوش على الدنيا تريد أن تبتلع في بطنك التجارة والبيت والدنيا كلها وتحبسني؟ بُعدك".

في تلك اللحظة تبدل شيء في الجو. شممت رائحة غريبة تفوح من جسدي، كأنما تحولت إلى ذلك الكائن الذي سأكونه، وأصبحت أشم روائح لا يشمها الناس وأرى ما لا يرونه. رأيت "حسن" يقوم من فوق الكرسي، وبسرعة شديدة أخذ يصفع مريم صفعات متتالية بلا توقف، وهي لا تتحرك. صفعات مثل خبط يرن في جسدي رنينًا زجاجيًا.

انفلت كوب الشاي من يدي وسمعت صوت تحطمه بعيدًا، ولسعات الشاي الساخن على قدمي مجرد فكرة. اندفعت تجاه "حسن"، عندما رأيت الدم يسيل من جانب فم مريم. في لحظة كنت قد أطبقت طوق الجلباب البلدي على رقبته ورحت أزره. وجهه يزداد احمرارًا وعضلاته تتراخى، بينما أراقب هادئًا الزوائد الجلدية التي يتباهى بها ويسميها "حسنات". في جوف هذا الاستغراق، كان يمكن أن يموت "حسن" لولا صرخة "أم سعد"، وبكاء "مريم" وهي تخبطني على ظهري.

شخص ما دفعني بعيدًا، فوقعت على الأرض وبقيت في مكاني فترة لا أعرف مدتها. "حسن" يسعل بشدة ووجهه يزداد احمرارًا، لمحت الموت محومًا؛ خطوط رفيعة من الدم متعرجة في الفضاء، مع تلك السعلات الخشنة ورشفات الماء. صورة الدم المتموج في الفضاء تتحول إلى رائحة. أصبحت الرائحة شديدة القوة لم أتحملها ولم أعد موجودًا.

شعرت بنفسي خفيفًا، بعيدًا. جربت لحظة أخرى من لحظات الصفاء والانتقال إلى الجانب الآخر. بدا الضوء لامعًا والصمت زجاجيًا. انفصلت تمامًا عن ذلك الكيان الذي كنته. لحظة بياض خاطفة تبددت عندما سمعت شهقات مريم. عدت ذلك الشخص الذي اعتدته ولكني لم أتحرك من مكاني. لم أغادر موقعي كأنني تحنطت.

لا أعرف المدة التي غبت فيها، لكني عدت من تلك الجولة البعيدة لأجد نفسي جالسًا على الكنبة وحدي في غرفة الجلوس. صراخ الأطفال توقف في بير السلم. "أم سعد" ما زالت تسند بظهرها باب

الشقة كأنها خائفة أن أهب مرة أخرى وأنزل السلم وراء "حسن"، كما يفعل الشباب في شارعنا القديم. صوت مريم يأتي من غرفتها. لا تزال تبكي.

في اليوم التالي قمت من النوم، وجدت الشقة خالية. سألت "أم سعد" عن "مريم" قالت إنها سافرت. لأول مرة أدخل غرفة مريم وهي غير موجودة. بعد صلاة الجمعة اتصلت خالتي من البلد. قالت باختصار: "لا تقلقوا، مريم عندي". جاء محسن بجلباب الجمعة الأبيض. أخبرته أن مريم عند خالتها، نظر إليّ بعيون غائمة وقال: "هي حرة، أخوك مكبر الموضوع. أظن أنه لن يتركها في حالها".

قلت له ساخرًا: "لن يتركنا جميعا".

همد البيت فترة، وعرفت من خالتي أن "مريم" سافرت لتتسلم عملها في القاهرة وأنها لن تعود إلى البيت.

* * *

(٢١)

الشقة خالية، فقدت طابعها البيتي برحيل "مريم". صباح شتوي عادي. "أم سعد" في السوق، وحدي أتحرك من غرفة إلى أخرى. الأولاد في المدرسة. صوت زوجات أخواي على السلم. همس. أعددتُ فنجان قهوة ثم جلست في السرير. تذكرت "ابتسام". قمت ودخنت في الشرفة. أمطرت رذاذًا. راقبت صخب مدرسة البنات في أثناء الفسحة. الشرفات ممتلئة بالبنات يمددن أكفهن لتبتل بالرذاذ. جو المدرسة به حس مبهج، أراه ولا أحسه.

لم أعد أذهب إلى المحل. طلبت إلى "محسن" أن يجهزوا لي حسابي وميراثي لكي أستقل بحياتي. الأمر ليس جادًا. لا أعرف معنى الحياة ولا الاستقلال، لكن هربًا من المواجهة. كيف سأعمل في مكان واحد مع "حسن". كنتُ خائفًا من هذا الكائن الذي طلع من جوفي ليلة ضرب مريم. الأمر صعب، وفي شعوري اليومي العادي، أخجل من نفسي، كلما فكرت أنني كدت أخنق أخي الكبير. أيام قلق. لحظة تحول، لا يعرف المرء فيها إلى أين سيمضي. كل شيء في تلك اللحظة يحبس أنفاسه. والحيرة سائل سميك يحيط بك.

كان يمكن لهذا الصباح أن يمر لولا تجولي في الشقة. دخلت غرفة "مريم". رتبت "أم سعد" القواميس والكتب، والأقلام والأوراق وبطاقات الاستشهاد على المكتب. الغرفة غافية، تنتظر. جلست على طرف سرير "مريم" وتأملت صورتها النصفية المعلقة في زاوية مرآة التسريحة، ترتدي البيجامة المنزلية الوردية وتلف شعرها الناعم الأسود كعكة خلف رأسها، وتنظر بمرح وجدية. جمالها يخص عائلة البري، الأنف الطويل والخدود البارزة، والذقن العريض يقطعه شبح طابع حسن، يظهر واضحًا عندما تكون جادة.

جلسْتُ على مقعدها أمام المكتب، كما كنتُ أراها عندما أعود بالليل، مستغرقة في الأوراق والكتب المفتوحة، وضوء الأباجورة يشع على سطح المكتب ويخلق بقعة من الوهج حولها. تبتسم وتقول: "حضر الغائب". تمنيت أن أكرر هذه الجملة طويلاً: "حضر الغائب، حضر الغائب"، هل حضر؟ شبح الغائب هو ما يلوح لكنه لم يحضر. قلبت في الأدراج. استخرجت من الدرج الكبير كتابًا للشعر الإنجليزي، تبرز من داخله ثلاث ورقات، مقطوعة من كراسة لا تزال مشرشرة الأطراف. الغريب أنها كانت مكتوبة بالعربي، عكس كل الأوراق المتناثرة في الدرج، بخط صغير منمنم وعلى عجل، كأنها مسودة رسالة إلى شخص ما.

سوف تدهمني الأحداث دون أن أعرف من هذا الشخص الذي وجهت إليه مريم هذا الكلام الخطير عن نفسها وعن العائلة. لن أعرف

إن كانت تلك الورقات الثلاث رسالة لشخص ما، أم أنها مجرد سرد لأفكارها على شكل رسالة. كانت بعثًا لسيرة عمتها "سعاد". بعد تلك السنوات، من يتذكر "سعاد"؟ تعجبي لم يكن من الحكاية بل كيف تحورت والتصقت بها، في شارع الحلو، حكايات أخرى لبنات أخريات. كانت الرسالة صعبة، وربما أسهمت في تبصري وسارعت بخطوات مصيري.

"سأقولها لك، لقد أخذت قرراي. لا يمكنني التحمل. إنني أفكر في كتابة تاريخ عائلتي من منظور النساء. واحدة منهن ماتت في غرفة مظلمة. يحكون سرًا في البيت عن عمة لي، لا يأتون على سيرتها أمامنا. إخوتي الكبار يعرفون الأمر، ولا يتحدثون عنها، كأنها لم تكن موجودة، حتى (أم سعد) عندما أسألها تتهرب مني. وبعد إصراري، أرشدتني إلى بيت (أم منير)، إحدى قريبات أبي، لا تزال تسكن في الحارة، هي التي أمدتني بنتف من حكاية تلك العمة.

حدث ذلك قبل أن أولد، عندما كانوا يعيشون في بيت العائلة الكبير في شارع الحلو. هذه الفتاة كانت (حرة). دعني أقول إنها كانت (حرة)، وتعاملوا معها على أنها (منحلة). في فترة الستينيات كانت الملابس قصيرة، وكانت زبونة عند خياطة جريجية في شارع أحمد ماهر، تترك البيت وتبقى عندها ساعات. ربما بسبب تلك العلاقة بدت مختلفة، ربما غوت الحب هناك. هناك أسرار لا يمكن الوصول إلى عمقها بعد مرور الزمن. كانت ترتدي فساتين قصيرة عارية الذراعين. عمي (صلاح) كان

يضربها في الشارع ويفرج عليها الناس، لكنها لم ترتدع. قابلت (عشيقها) فوق السطوح، وفي بيت (أم منير) أحيانًا، وعند الخياطة الجريجية، حتى دخل الجيش. استخدَمْت نفس التعبير الذي سمعته في الحارة. لم يقولوا (حبيبها)، أو (خطيبها) أو غير ذلك من المسميات. "العشيق" له درجة من التحريم أكبر من المسميات السابقة. العشق، يُظهر الهوى والميل ويعني تخطي الحدود. كانت تستيقظ من الفجر وتقابله في محطة القطار وتظل في وداعه، واقفة وحدها على الرصيف حتى يتحرك القطار. ذات يوم جاء الخبر. سقط تحت عجلات القطار في محطة الزقازيق، قبل أن يصل إلى وحدته العسكرية في الإسماعيلية.

استحوذت على عمتي حكاية راحت تحكيها طول الوقت حتى نشرتها وتحدث الناس سرًا عنها. قالت لأم منير: أهلي قتلة، أجروا (ولد صايع) من الصاغة دفعه تحت القطار. تدهورت حالتها. وقفت في الشارع وراحت تصرخ في وجه عمي (صلاح): يا قاتل. وجاءوا بها ذات يوم من شارع درب الأثر. كانت توقف الناس وتخبرهم بأن إخوتها قتلوا خطيبها وأنها لن تتركهم. قالوا إنها مرضت، وعالجوها بالمسكنات. وبعد أن استطاعت أن تميز ما حولها لم يجدوها في البيت. قالوا إنها كانت تسافر وحدها في القطارات ولا تفارق رصيف المحطة، كأن خطيبها سوف يعود إلى الحياة، ستجده ذات يوم ينزل من أحد القطارات، وعندما يئست قالوا إنها ذهبت إلى المقابر وحاولت إخراج جثته. كانت تدّعي أنه حي وأنها سوف تساعده في الخروج من حبسه تحت الأرض وسوف تتزوجه وتنجب منه. فقدت عقلها كما قالوا. حبسوها في غرفة

مظلمة، حتى ماتت.

لا يمكن أن تصدق ذلك، لكن تلك الحكاية التي سمعتها من (أم منير) ونساء أخريات في الحارة، مزقتني السنوات الماضية. تعبت روحي، ولم أستطع النوم. أحاول التخلص من غضب غامض مكتوم. كل يوم أذهب إلى الحارة بعد الكلية، أعبر شارع السيد عبد اللطيف وأدخل حارة صغيرة على اليمين بالقرب من شارع الجلاء، هناك بيت من طابق واحد أمامه شجرة صفصاف قديمة، والشباك موارب تراني (أم منير) تبتسم وتقوم بجسدها الهزيل وتفتح الباب لي، وتجلسني على كنبة بجوارها، كنت أستريح هناك.

حكاية عمتي سعاد ظلت تطاردني. لم يتطرق أبي أبدًا إلى ذكرها، وعندما كنت أسأل أمي عنها لم تكن تجيب بغير: (لو أبوك سمعك سيذبحك). هذا الجرح يتخفى في الفضاء الداكن لبيتنا، خلف هذه الثروة والسيارات والتجارة. حياة أسرتي تنام فوق هذا الجرم كأنه غير موجود، لكني كنت أشعر به.

كيف أعبر لك عن الأمر؟ في طفولتي أخرجتني أمي من حمام الجمعة وهي تضربني لأني سألتها عن شكل عمتي وهل أشبهها حقًا كما يقولون. عندما كنت صغيرة صعدت إلى سطوح البيت. هناك غرفة صغيرة فيها كراكيب. الهواء فتح شباكها. رأيت حقيبة يد قديمة بين الأشياء المتناثرة. قفزت من الشباك وأخذتها، ونزلت إلى الشقة أحملها على كتفي، باحثة عن حذاء بكعب لكي أقلد البنات الكبار. رأتني

أمي، ضربت على صدرها قائلة: (جبت البتاعة دي منين؟) شعرت بالخطر. كنت أحمل السر دون أن أعرفه. ربما وهم ينقلون العفش من البيت القديم حملوا إلى غرفة السطوح بعض الكراكيب، لم يستطيعوا أن يميزوا بين الأشياء المهمة وغير المهمة. لم يستطيعوا أن يحجبوا أشياء صغيرة أفلتت من الطمس. أخفيت تلك الحقيبة بعيدًا في غرفتي وما زلت أحتفظ بها حتى الآن. عرفت أنها لعمتي من نظرة أمي، وسؤالها الغريب. حقيبة يد سوداء داخلها قلم روج، ومرآة صغيرة مستديرة. حقيبة اليد التي أظن أنها حملتها معها في أثناء فترات انتظارها الطويلة على محطة القطار.

الآن أفهم بعضًا مما حدث لي. لِمَ نظروا إليّ بتوجس كأنني شبحها الذي عاد إلى الحياة. في أحد الأعياد جاءت امرأة من الحارة لتزور أبي، كان ذلك قبل موته بعدة أشهر، وعندما رأتني قالت: (اللهم صل على النبي، كأنها الست سعاد الخالق الناطق). يومها غام وجه أبي ونهر المرأة بحدة وتركها وحدها في غرفة الصالون. منذ ذلك الوقت المبكر وبسبب هذا الهمس، شعرت بارتباك سوف يرافقني طويلاً. كيف أفرق بيني وبين من تسكنني؟

هذا سر الصمت الذي أحاط بي، وتلك المراقبة التي أحاطتني طوال الوقت. هناك حس بأن أحدًا يطل عليّ. تعرف؟ عندما أدخل الحمام أغلق الباب، وأعود لأنظر إلى الترباس بعدما أخلع ملابسي وأقف عارية، كأني غير مصدقة أنه مغلق، هذه الترابيس الصارمة التي تجسد

العزلة، أشك في صرامتها وفي فكرة الغلق التي تمثلها. أنظر إلى لون التراباس الأصفر بدهشة. هل صحيح أنت ساكن في مكانك وتحجب عني العيون المتلصصة. رغم ذلك لا يفارقني هذا الحس وأنا وحدي عارية في قلب الماء، وحدي تمامًا ليس معي غير جسدي.

بمضي الوقت رحت أفهم لم أحاطني الصمت في طفولتي. لِمَ كان يُنظر دائمًا إلى ألعابي وطريقتي في المشي والضحك بنوع من التفحص. لم أكن أفهم هذا في وقته. لكنه يتضح الآن، وأشعر بحنق تجاههم، كأنهم كانوا يبحثون في ضحكي وطريقتي في المشي عن عمتي. كانوا خائفين من عودتها.

أعرف أنك متعجب، كيف يمكن قتل إنسان في هذا الزمن ولا أحد يشعر به، كأن سلطات البلاد حريصة على أرواح الناس. سلطات البلاد أتفه شيء عندها هو أرواح الناس. الإنسان رخيص هنا رخص التراب. المهم هو النظام. عندما يُقتل شخص فإن الحرص على الوصول إلى القاتل هو حرص على أن يكتمل النظام. لا يهم إن كان هو القاتل أم لا. لا تهم الحقيقة. النظام هو المهم. كم عدد المساجين المتهمين بالباطل؟ لا تسأل، وكم من القتلة طلقاء؟ لا تسأل، كل هذا بسبب الحفاظ على صورة النظام، وإن مات شخص ولم يعبأ أحد بقتله، فليذهب إلى الجحيم، المهم ألاَّ يبدو الأمر على أنه قتل.

ماتت عمتي بطريقة طبيعية. حُبِست في غرفتها، مريضة، مهانة، بلا أحد. استُخرج تصريح الدفن، ولم يأت الطبيب الشرعي ليوقع الكشف

عليها. عمي كان يعرفه ويعرف أسرته. لم يذهب إليه بنفسه، أرسل له عم ("دسوقي)، عامل الوكالة. وقع الرجل وهو في فراش النوم على تصريح الدفن.

ارتاحت الأسرة قليلا، لكن عندما ولدت، عادت المخاوف مرة أخرى. لقد عادت إليهم الميتة في شكل جديد. هذا سبب الاضطراب الذي عشت به حياتي من أيام المدرسة الابتدائية، وعندما بدأ جسدي يفور ويخرج الفتاة من جوفه، عندما بدأت رائحة الأنثى تفوح من مسامي بدأ البيت يضطرب. مات أبي قبل أن أتحول إلى فتاة. أتخيل مشكلته، أتخيل وجهه الغائم كلما مررت أمامه، إن كان يمكنه أن يقتل أخته فكيف يمكنه أن يقتل بنته؟ أتذكر ذلك الحنان المطمور الذي كان يعاملني به عندما كنت طفلة. المواجهة مع (حسن) أسهل بكثير. بدأ الاضطراب عندما بدأت أرتدي ملابس البنات. أصر (حسن) (أخي المسؤول عن الأسرة بعد موت أبي) أن أرتدي الحجاب من الصف الثالث الإعدادي. في المدرسة الثانوية أوصى بي مدرسة الألعاب التي كانت قريبتنا، لكن تلك الست كانت طيبة وروحها مرحة، أخذتني معها في كل المسابقات. لعبت الكرة الطائرة واستمتعت بها، ولو تركوني لكنت لاعبة ماهرة في الكرة الطائرة. ذات يوم جاء (حسن) إلى المدرسة وقابل قريبته. كنت وقتها ألعب ماتش طائرة، وسمعت حديثها الغاضب معه. (لا أعرف لِمَ أنت خائف عليها؟ البنت شاطرة وزي الفل). اندهش أخي من غضبها، ومضى دون أن يكمل كلامه.

عادت الروح التي يخافون منها. لكن سيرتي لم تكن تشير إلى الاتجاه الذي سارت فيه عمتي. لا أعرف السبب. لقد أحببت جسدي وتحسسته في فترة المراهقة مثل البنات. لكن كنت أشعر باختناق من القرب الزائد من الناس، حتى في (الدسك) في المدرسة، أفضل أن أكون وحدي. لقد نفر جسدي وحده من هذا القرب المفرط الذي تتطلبه العلاقات الحميمة. ربما كنت غريبة. صحيح هناك جاذبية في الاقتراب من الصبيان، لكن حتى هذا خُيّل إليّ أنه يخنقني، وتلك الشهوات التي طلعت في تلك الفترة، كانت تصيبني بالخجل الشديد الذي يبلغ حد الألم. الخجل مؤلم جدًّا حتى إنني لم أتخيل أن يلمسني شخص آخر. لا أعرف ماذا حدث لي حتى أكبر على هذا النحو؟ لا أعرف، ربما حس المراقبة الذي أحاط بي هو ما جعل من الصعب أن أكون عارية في حضرة أحد. لا أشعر بميل تجاه هذا. لم تتح لي فرصة أن أتأمل الأمر. فترة الدورة الشهرية مرهقة لي لأنه يعقبها حنين غريب مثل ضوء القمر يسيل في جسدي من الداخل، حنين إلى شيء مجهول غريب، أتوق إليه ولا أعرفه. بدأت أقرأ الروايات التاريخية بنهم غريب، حتى وقع في يدي كتاب عن التصوف في الهند، في مكتبة الكلية وقادني إلى أن أفهم قليلاً ذلك الحنين الغامض بل قادني أن أتواءم معه، أن أحسبه إحدى سمات وجودي. لا أمل لي في لعب الكرة الطائرة، كم تمنيت لو أتيحت لي حياة أو إرادة أتمكن بها من لعب الكرة الطائرة. حلمت طويلاً أن ألعب وحدي فوق سطوح البيت، أضرب الكرة يردها حائط غرفة الكراكيب، أردها إليه، وهكذا ساعات وساعات، حتى يتصبب

جسدي بالعرق وأشعر بصهد شفاف يفوح من جسدي.

عندما أنتهي من المحاضرات أمشي بطول شارع البورصة، وعند درب الأثر، يقترب مني تاريخ عائلتي على شكل رائحة غامضة للتوابل، قافلة من الجمال تعبر الصحراء. أنت لا تصدق، لقد حلمت أن أقوم برحلة من تلك الرحلات إلى دارفور أو إلى البلاد الحارة. أرافق قوافل الجمال تشد الرحال في قلب الصحراء، وتعود محملة بمنتجات البلاد الاستوائية، أشعر بذلك الحلم قريبًا مني، كأني عن طريقه سوف أصل إلى منبع حسي بالقلق.

ليس هناك أكثر من هذا القلق، ليس هناك غيره.

أتمنى أن تكون قد فهمت لمحة مما أشعر به".

تركت الأوارق في مكانها. حاولت، بطريقة ساذجة، أن أحافظ على مكانها كما وجدته. خرجت من غرفة مريم، كأنما أريد أن أمحو هذا الطيف الذي دخل تلك الغرفة، أمحو آثار وجودي ومعرفتي. كيف يمكن لشخص أن يوقف هذا، لا يمكن لوعي نشأ أن يتوارى إلاَّ بالموت أو بالتحقق.



(٢٢)

امتدت الجفوة بيني وبين "حسن"؛ فقد كان من الصعب تخطي ما حدث ليلة ضرب "مريم" بغير التجاهل. أخبرني عم "دسوقي" ذات يوم، بالتليفون، أن "حسن" سافر إلى الإسكندرية لتخليص بعض الأعمال، ولا بد من أن يكون أحدنا في الشغل، بعدها اتصل "محسن" وقال إنني لا يجب أن أبقى جالسًا هكذا ولا أحد يرعى أعمالنا. لا شعور بالمسؤولية ولا شيء من هذا، مجرد فراغ، هو ما أعادني إلى العمل. في اليوم التالي عندما عاد "حسن"، تم طمر ليلة العراك بعيدًا، وتعاملنا بشكل عادي.

فترة خالية. كل يوم أرتدي ملابسي وأذهب إلى المحل، ثم أعود في الليل، كأن ذلك سوف يستمر إلى النهاية، لولا أنني في أثناء عودتي ذات يوم قررت أن أنام في بيت خالتي من باب التغيير. يومها وجدت عدة أوراق تحت عقب الباب مكتوبة على عجل بخط ابتسام الضعيف، تقول إنها مرت خمس مرات ولم تجدني وأنها مريضة.

في اليوم التالي قررت أن أزورها. نزلت من سيارة الأجرة أمام

كوبري الخادم، وعبرت النفق. البيت قديم بالطوب الأحمر، وهناك غرفة وحيدة فوق السطح. قادتني امرأة تسكن في البيت المجاور إلى الداخل. نادت على "سها" ابنة "ابتسام"، التي كانت تلعب في الشارع. البنت بيضاء لم تكن بها من ملامح ابتسام غير العيون الواسعة السوداء، والشعر الأسود المضفر بشريط من القماش. قالت "سها" وهى تصعد أمامي متضايقة من أنني قطعت لعبها: "أمي عيانة". ونظرت إليّ كأنها تكتشف وجودي، وتسأل عمن أكون، ولكنها تخطت الأمر وقالت: "أم السيد بتيجي لها بالليل وتحط لها مية ساقعة على رأسها". السلم خشبي والسقف أيضًا من الخشب. يبدو أن والدها قد بنى هذا البيت من بقايا عمله في بناء البيوت.

تركتني البنت واقفًا أمام باب الغرفة ونزلت مسرعة.

"ابتسام" نائمة على سرير خشبي، بجوار نافذة تفتح على الشارع. الشمس تنير الطريق. أدركت أن اليوم هو الخميس عندما شاهدت عددًا من النساء بملابس سوداء يتجهن عبر النفق إلى الجبانة. وقفت حائرًا لا أعرف ماذا أفعل. كانت السماء بعيدة ورائحة تراب في الجو. "ابتسام" مغمورة بالبطاطين. وجهها أصفر، وملامحها تبدلت قليلاً.

جلست على طرف السرير.

قالت: "جئت أخيرًا، بعدما تركتني أموت".

بدأ لساني يجف، وتتوه الكلمات مني. اقتربت منها محاولاً نسيان الاضطراب، والمخاوف. لكنها لفت نفسها بالأغطية، وأدارت وجهها إلى الحائط. قمت مقتربًا من النافذة. سمعتها تقول بصوت خافت:

"الدورة اتأخرت وقضيت ليالي أسود من قرن الخروب".

صدَقَت هواجسي، كان الأمر أكبر من مجرد مرض عادي:

"دورت عليك في كل حتة، وسألت عم دسوقي".

بعد قليل قالت:

"كان أحسن لي لو مت".

وجدت الكلمات تخرج من فمي مختلطة كأنها عجين الكلام، حروف مقطعة، ففضلت السكوت. كانت غاضبة، وفي لحظات غضبها تصبح نافرة، من الصعب الحديث معها. الآن أحتاج الكلام، وعند الحاجة إلى الكلام يحل عليّ صمت كأن لساني تحول إلى قطعة من اللحم فقدت اتصالها بالنطق. لحظات قصيرة، معذبة.

قالت: "كنت بموت".

حاولت الجلوس مرة أخرى على طرف السرير، لم أتمكن. تجولت في الغرفة. هناك كومة من الثياب على كنبة خلف السرير، ودولاب يبدو أنه هو ما تبقى من جهاز عرسها، وتسريحة.

قالت: "مستعجل؟".

أخيرًا وجدت الكلام:

"احك لي ما حدث".

جلست على طرف السرير، وشعرت برائحة العرق مثل الخل، وحس بأن الدنيا ضيقة، قالت إن الدورة قد انقطعت، فقالت في نفسها إنه اضطراب، فكثيرا ما يحدث لها هذا الاختلال في ميعاد الدورة

الشهرية، لكنها في النهاية تعود. هذه المرة لم ترجع.

قالت مرة أخرى:
"دورت عليك في كل حتة".
ونظرت إليّ بحدة وقالت بدون مناسبة:
"كنت تريد أن أستعطفك؟".

تحركت، فصدر عن السرير أزيز خشن، وسمعتها تتنفس بصعوبة، وهي تحاول أن ترفع جذعها وتستند على ظهر السرير. عيونها لامعة كما كانت دائمًا، لم يهزمها المرض.

مرة أخرى وجدت كلمات تخرج بصوت أجش:
"البيت فيه مشاكل، مشاكل........".

رحلت فجأة الرغبة في الكلام، لكن بريق عينيها أيقظ شيئًا، فسألتها إن كانت قد تلقت علاجًا. قالت:
"لا تقلق، لن أموت هذه المرة".

علقت نظرها بالسقف ورفعت عيني إلى ما تنظر إليه. عروق الخشب قديمة مدهونة بالجير. أخبرتني بالقصة. فكّرَت أن "سنية الداية" يمكن أن تساعدها، ولكن المرأة العجوز اعتذرت لأن يدها بدأت ترتعش ولم تعد تحمل هذه العمليات، لكنها أخذتها إلى طبيب تتعامل معه، يفتح عيادته لهذه العمليات يوم الجمعة. قالت ابتسام:

"الله يسترها فضلت معايا للآخر. النزيف بهدلني".

سمعت صوت البنت الصغيرة طالعة. شخطت فيها ابتسام:

"اِجري العبي تحت".

لم يعد هناك شيء.

قلت لها قبل أن أغادر إنني أنتظرها لنتحدث عن مستقبلنا، نظرت إليّ وبسمة ساخرة تلوح في عينيها.

غادرتُ بيت "ابتسام" أشعر بأنني طيف. اعتدت مثل هذه الأفكار. هذه المرة أصبح الإحساس واضحًا. كنت غير موجود، حتى إنني أردت أن أتحدث مع أحد لأتأكد من أنه يسمعني. فكرت أن أمر على الوكالة. لم يكن الأمر مجديًا، حتى لو تحدثت مع عم "دسوقي" وحكى لي لمحات عن الوكالة والشارع أيام زمان، هل سينفي ذلك الإحساس بأنني غير موجود؟ منحني هذا الشعور لأول مرة حسًا بأنه أفضل ما يحدث لي. في المرات السابقة كان يضايقني وأحتاج إلى نفيه، أما اليوم فقد ارتحت إليه.

خرجت من النفق وسرت بجوار المباني القديمة في الشارع الموازي لشريط السكة الحديد، لا أعرف مقصدي. عبرت تل الحدادين ولمحت النيران تلمع في أفران قديمة تُسوى فيها المعادن. العمال عرقانين في قلب الورش، وأعمدة الحديد المستخرجة من أنقاض البيوت القديمة مركونة على الجدران أمام الورش. بعض التجار يجلسون أمام المحلات. في كل خطوة يتجسد حسي بأنني مجرد أفكار هائمة في الفضاء، لا تواجد جسدي لي. هذا الجسد تبدد منذ أسبوع تحت مشرط الطبيب. الكائن

المشترك بيني وبين ابتسام الذي نما في جوفها وكان قادرًا على تخطينا معًا، بددتُه عندما كنت مستلقيًا خارج الحوادث. هل دمرت "ابتسام" دليل "وجودي"؟ هل كان "وجودي" سوف يتجسد وهي حرمتني التجسد؟ تلك القطع من الدم المتخثر الذي غادر رحم "ابتسام" كان "أنا". كان ما سأكونه. هل الإنسان شيء آخر غير ذلك النسيج التي مزقه مشرط الطبيب، والرحم الحميم لابتسام هل سيكون قادرًا على خلقي مرة أخرى؟

تلاشيت مثلما تلاشى ذلك الكائن الذي تشكل في جوف ابتسام، وتحللت مع تحلل الخلايا، وفقدت "أنا" أخرى كنت سأكونها. فقدت طريقة أخرى في النظر والمشاعر والحزن والفرح، ونبرة الصوت والملامح. روح أخرى، ربما استطاعت التحرر من تلك الذات الداكنة التي أعيش بها. ربما استطاع ذلك الجنين المرمي في تواليت عيادة طبيب النساء أن يقوم بما عجزت عنه، ربما عثر على حريتي وشق طريق الخلاص.

كنت أعيش في لحظة أخرى، هناك، تحت سن المشارط تقطع جسدي، تحيلني إلى خلايا ممزقة. شعرت بألم عميق؛ فم مفتوح ينهشني، مسخ يمصمص في أفكاري، فأطلقت صرخة عالية، وتلفتُّ حولي. عدد من الفلاحين يقفون أمام محلات الغلال، وعربية كارو تحمل صفائح جبن فارغة ويرن الصفيح في الجو. لا أحد انتبه إلى الصرخة. ازداد الألم وصرخت صرخة أخرى. وقفت أحدق إلى الشارع الصاعد إلى ميدان

الجامع الكبير. على منضدة كبيرة تتراص عرائس المولد والأحصنة الحلاوة، بألوان زاهية. صرخت مرة أخرى.

* * *

(٢٣)

اتصلت "مريم" من القاهرة وأخبرتني أن تحقيقًا صحفيًّا لها سوف يظهر في الجريدة المسائية. كنتُ جالسًا في الصالة. مددتُ جسدي على الكنبة وغفوت. رأيتُ نفسي في شارع يصعد مرتفعًا. سمعت أزيز ماكينة لحام، ورأيتُ وبر الحديد المشتعل يتناثر في الفضاء، وما إن يفارق الاندفاع الأول حتى يبطئ، وبدل أن يتوارى منطفئًا، يحافظ على بريقه وتقل سرعته، ويطير مثل بالونات مضيئة، لها أجنحة صغيرة غير مرئية، كلما ابتعدت في فضاء الليل بدت كفوانيس طائرة.

فتحتُ عيني. عرفت أن الحلم يشير إلى يوم زيارتي لبيت ابتسام. تذكرتُ تلك اللحظة المنغصة. فكرت في أفران الحديد، وفي النار. ما هي النار؟ مشهد النار في الأفران كان الأمر الوحيد الذي له معنى عندما تركت بيت ابتسام، وغرابة فكرة الإجهاض. هناك جانب أهملته حضر الآن بوضوح. لم أكن أربط بين سوائل الحب وبين إعادة إنتاج الحياة، وبلا وعي أعدت إنتاج حياتي وضيعتها في نفس الوقت.

أخذت حمامًا وتناولت إفطاري، ونزلت إلى الشارع قبل ميعاد

الذهاب إلى العمل. اشتريتُ الجريدة المسائية وجلست في مقهى قديم في شارع البحر، أقرأ قصص مريم عن حياة عمال اليومية، كان موضوعًا غريبًا واندهشت من طريقة الكتابة ووصف القرى والبيوت والناس. كان أمرًا مختلفًا عما عاشته، ولكنه مكتوب بنفس الأسلوب الذي كتبت به رسالتها المهملة في كتاب الشعر. حملت الجريدة إلى الوكالة، تناقلها العمال، وفردها حسن على مكتبه، وظل يهتز في مقعده مقطب الجبين، ومن حين إلى آخر يمسح على شاربه الأصفر، دون أن يعلق بكلمة واحدة، لكن صفحة وجهه المستديرة البيضاء كشفت ارتباكه. عم "دسوقي" هو الذي تلقف الجريدة، وراح يقرأ الموضوع بتمعن وهو جالس على مقعد حشبي عند باب المحل.

أصبحت فترة التواجد في الوكالة مرهقة، لولا عادة المراقبة لما تحملتها. كان وجودي مع "حسن" به شحنة من التوتر لا يمكن السيطرة عليها، لكن بالتدريج رحت أستسلم للأحداث الطفيفة التي تحدث في يومي. بدا لي أحيانا أن الرغبات جفت، حتى رغبتي في الطعام بدأت تتوارى تدريجيًا. أقضي ساعات العمل صامتًا. أدخن في الركن جالسًا إلى مكتب صغير أقلب في فواتير البضاعة. سألني "حسن" ساخرًا ذات يوم: "ألن تفيق من تلك الغيبوبة؟".

في البيت راح كل شيء يبرد، كأن الحياة لم يعد لها نبض. غدت الشقة ساكنة، وأولاد إخوتي لم يعودوا يطلعون ويثيرون الصخب الذي يعطي البيت سمته. "أم سعد" تأتي في الصباح تعد لي طعامي وتنظف

الشقة وتوقظني وتعود إلى بيتها في الظهيرة. أقضي الوقت جالسًا في البلكونة أحدق إلى سور مدرسة البنات، إلى النوافذ المفتوحة وسطح مبنى المدرسة الذي جفت فوقه طحالب خضراء. ساعات طويلة أقضيها على هذا النحو ساهمًا حتى تغيم الشمس. أرتدي ثيابي وأقطع الطريق ماشيًا إلى المحل.

بدأت مرة أخرى فكرة زواجي تقلق العائلة. راح "حسن" يلح في الأمر بعيدًا عني، يُحدث "محسن"، أو يدفع "أم سعد" لتفتح الموضوع معي. كان ذلك ينفرني ويوقظ رغبتي في العناد. في نظرهم كنت أغادر "الأوان"، فقد دخلت الأربعين من العمر. كيف أخبرهم أنني غير قادر على الأمر برمته. الموضوع له نفس الغرابة التي شعرت بها تجاه علاقة المتعة الجسدية بالإنجاب.

ذات ليلة أنهى محسن عيادته مبكرًا ومر عليّ في الوكالة، ودون أن ينزل من سيارته، ناداني قائلاً: "تعال معي نتمشى قليلاً". شقت السيارة طريقها ببطء في زحام شارع البورصة، ثم انطلقنا إلى اتساع المنطقة المحيطة بالاستاد الرياضي، وعدنا إلى المدينة، وظل الكلام محبوسًا.

صمت "محسن" اعتبرته مؤامرة. صعدنا إلى البيت وجلسنا في شقة أبي، وأجبرنا أنفسنا على حديث يخص المستقبل، تحدثنا عن الميراث، عن طريقة "حسن" الجديدة في الحساب، واختلال الأمور من ليلة ضرب "مريم". قال "محسن" إن "حسن" له مزاج خاص، لكن لا يمكن أن يخون الأمانة. قلت له: "هذه حياتكم، كل ما أريده أن أعيش كما أريد".

اندهش من الفكرة وقال: "أنت تريد عالمًا وحدك". "لا أحد يمكنه أن يعيش كما يريد، لا بد من أن تتزوج وتكوّن بيتًا". وحدثني أنه وجد لي عروسة جميلة ومن عائلة. قلت بحدة: "أنت طبيب كبير لا يصح أن تكون تابعًا لأفكار أخيك". نظر إليّ غاضبًا وقال: "أنت مريض". قلت بجدية:

"فعلاً، أنا مريض".

بعد صمت قصير مشحون، قلت:

"أريد أن أتحدث مع طبيب".

قضيت اليوم التالي دون أن أنطق كلمة واحدة. لم أعد في حاجة إلى الكلام، حتى إنني عندما زهقت من المحل قلت لعم "دسوقي": "أنا مروح"، بدا صوتي غريبًا، مثل خربشة معدنية على سطح زجاجي. في أثناء السير في الشوارع شعرت بحنين إلى شقة خالتي كأنها المكان الذي أبحث عنه. سرت متمهلاً أفكر أنني لن أذهب إلى بيت أبي، وسوف أقضي ما تبقى لي من وقت في شقة خالتي.

كنتُ أسير في شارع البحر، أفكر في الزمن ومروره وماذا يعني، وفي أصحابي ومصيرهم. "إبراهيم الألفي" غرق بالكامل في تحضير رسالة الدكتوراه وسيطر عليه وهم أن في روحه لمسة من روح شوبنهاور. "مجدي المغربي" يمثل الآن أدوار البطولة في مسسلات طويلة تذاع كل ليلة في التليفزيون. "توفيق السيد" أراه أحيانًا مهرولاً في الشارع وما زال يحمل كيسًا من البلاستيك أظن أنه الآن يحتوي على أسطوانات

الكمبيوتر، بدلاً من شرائط الفيديو. أفكر في الحياة في المباني في الناس، أترك ذهني لتيارات من الأفكار تأتي وتذهب على هواها. صعدت سلم بيت خالتي وأضأت المصباح. أصدرت لمبة النيون صوتًا مثل الأزيز، قبل أن ينفرط ضوء أبيض مثل مسحوق دقيق الخبز، ويكشف كراسي الصالة القديمة بأذرعها الخشبية اللامعة. شعرت بالهرم يسري كأنه سوس في العظم، جلست على الكنبة ورحت أدخن.

كل يوم أذهب في السادسة إلى المحل، وعند التاسعة أكون قد تعبت، أترك العمل دون كلمة وأعود إلى شقة خالتي. أجلس في الشرفة أدخن وأراقب ما يحدث في الميدان. أصبح المكان ملتقى شباب المنطقة. يركنون سياراتهم الحديثة بجانب سور المركز الطبي وعلى جوانب الطريق ويتجمعون في حلقات على الناصية. يثيرون صخبًا، أصبح تسليتي. كانت أعدادهم تتزايد، كلما تقدم الليل. أراهم يعبرون الطريق، إلى كشك أقيم على الرصيف المواجه لشارع بطرس، ويعودون إلى أماكنهم. أسمع ضحكهم وصياحهم، وكلما تقدم الليل أصبحت أصواتهم أكثر وضوحًا. أرى بعضهم في الركن المظلم بين عمارتين يفردون قطعة من الكرتون ويفركون دخان السجائر مخلوطًا بذرات الحشيش. كل ليلة يتجمعون غير عابئين بشكوى السكان من الصخب الذي يثيرونه، وبخاصة عندما يعن لهم أن يقيموا مباريات لمن يمكنه أن يرسم آثار إطارات السيارة دائرة مكتملة على الأسفلت. في تلك اللحظة تعلو الأصوات الصارخة للإطارات وهي تحتك بالأسفلت. أحيانًا يقيمون سباقات سرعة بالسيارات، لا أتمكن من متابعتها غير أني أسمع

صوت الموتور يعلو وهو يبتعد كأنه قلب على وشك الانفجار. غدا الليل صاخبًا في تلك المنطقة. وفي النهار أترك ذهني يتجول براحته، كأنه آلة لعرض الصور، في قاعة سينما خالية.

رجعت إلى بيت أبي مضطرًا، عندما عادت "مريم"، بعد أن أقنعها "محسن" بضرورة العودة، حتى تصفو الأجواء بيننا. في النهاية "نحن إخوة" كما قال. في صباح تلك الجمعة، كان ضوء الشمس يغمر سور مدرسة البنات، وحرارة الجو عالية، وكنت أمدد قدمي على منضدة الصالة مستمتعًا بالجو الأسري الذي يشيعه وجود "مريم"، عندما وقفَت في مواجهتي وهي تنظر بخوف إلى قدمي وتقول:

"ما هذا؟ أظافر قدميك شكلها غريب جدًّا".

نظرت إلى قدمي، لم أنتبه إلى أن أظافري، قد طالت على هذا النحو العجيب. حاولت التملص من الأمر قائلاً:

"عادي".

قالت:

"ليس معتادًا، أن تكون أظافرك لها هذا الشكل الغريب، كأنها مخالب".

كانت أظافر قدمي محدبة، أطرافها ملتصقة باللحم وسطح الظفر أسود كأن الدماء قد حبست تحته. ربما كانت أول علامة على أن التحور، لم يعد يحدث في الداخل بل انتقل ليحدث في الجسد، لم أتوقف

طويلاً أمام الأمر وإن كان قد أقلقني منظر الأظافر والألم الذي عانيته أثناء قصها، عندما جاءت "مريم" بالمقص وأجبرتني على قص الأظافر. ألم شديد العمق كأنه خلع الأسنان بدون تخدير. السؤال الذي يراودني الآن في محبسي، عندما طاف بذهني هذا الصباح هو: كيف لم أنتبه إلى جسدي وهو يتحور، وتسقط عنه قشرة الإنسان؟ كيف غفوت عن مصيري الذي بدأ جسدي يعلن عنه؟

بعد ذلك بعدة أيام، زارتني "ابتسام" وأكدت ملاحظات مريم، قائلة وهي تحدق إلى ملامحي إن شكلي أصبح غريبًا. وعندما سألتها عما هو "الغريب" بالضبط، قالت حائرة: "كأنك شخت فجأة". ثم نست الأمر، وراحت تتحدث عما حدث لها.

يومها حدث لي كفٌ عن ممارسة الحب. رفض جسدي أن يستجيب وانكفأ على نفسه. نظرت إليّ وقالت:

"مالك؟".

لم أجد رغبة في أن أرد عليها. جلَست على طرف السرير بينما ظللت راقدًا أحدق إلى السقف، وأفكر في زخارف الجص التي استمرت في مكانها خمسين عامًا.

قالت ابتسام:

"ولا يهمك، يمكن مرهق أو تعبان".

ولّما وجدتني صامتًا، أكملت:

"ستكون أحسن المرة القادمة".

قلت بصوت خفيض:

"لن تكون هناك مرة قادمة".

وقفت ترتدي الحجاب أمام التسريحة. حاولتْ أن تخفف من وطأة الحسم في النبرة التي نطقت بها كلمة القطيعة، فقالت بقدر من المزاح:

"خلاص زهقت مني؟".

لولا حبي لابتسام لما نطقت، فلست مضطرا التوضيح. "ابتسام" الكائن الوحيد الذي يخصني ولا أرغب في إيلامها. حاولت أن أضع يدها على الأمر بصورة تمكنها من فهمه:

"أنا مريض".

قالت:

"لا تقل هذا، أنت صاغ سليم".

لا فائدة، ليس هناك مجال للتفاهم، حتى عندما حاولت أن أصوغ حالتي في مفاهيم تفهمها "مثل المرض" لم تستطع أن تقترب من الموضوع. في تلك اللحظة رأيت الحافة التي أسير عليها، حادة وواضحة، والطريق التي أسلكها ضيقة خالية من أي نفس. كان من الصعب لأي كائن على الأرض أن يفهم حتى أقرب الناس إليّ. نزلت "ابتسام" في ذلك اليوم على أن تعود يوم الأحد، لكني لم أرها بعد ذلك. انتهى الأمر. .

بعد عدة أشهر من الظلمة شعرت بأنني غير قادر على الحركة. بدأت شهيتي للطعام تقل وأشعر بآلام في جسدي تنتقل من الذراع إلى الجنب

ثم إلى الظهر، وتتركز في الرأس على شكل صداع لا يتوقف. بدأت أتناول كميات من المسكنات والمهدئات وكفرصة أخيرة للكائن البشري طلبت من "محسن" أن يصحبني إلى طبيب.

* * *

(٢٤)

عيادة الطبيب في عمارة جديدة مواجهة لمبنى محطة السكة الحديد، واسعة مؤثثة تأثيثًا حديثًا، بها مقاعد جلد ذات لون رمادي، وشرفة الصالة ضيقة مثل شرفات المباني الحديثة، تنمو فيها نباتات ظل. لم يكن هناك أي شخص في الصالة. على منضدة صغيرة في الركن ثلاثة مصاحف وعلى الجدران آيات قرآنية مذهبة. التليفزيون يذيع مباراة كرة قدم. فتاة محجبة ترتدي بالطو أبيض، تجلس إلى مكتب صغير في صدر طرقة الحمام، مشغولة بفحص أوراق.

طلبت أن أقابل الدكتور. سألتني وهي تنظر إلى الأوراق إن كنت قد حجزت. قلت لها اسم أخي. رفعت وجهها وبعد لحظات من التحديق إلى الملامح، قامت ودخلت غرفة الطبيب. بعد قليل رأيت الدكتور "نادر" يقف مبتسمًا. يبدو أصغر مني في السن، باسم الوجه يمد لي كفه. خمنت عمره وشعرت بالخديعة. كيف يمكن لشخص لم يجرب تجربتي أن يفهمها؟ حاولت قدر إمكاني أن أبتسم. دخلت الغرفة وجلست على مقعد أمام المكتب. الغرفة ضيقة، تفوح منها رائحة نباتات عطرية. سمعته

يتحدث عن "محسن"، وكيف أنه أستاذ في الكبد يعرفه الناس في أنحاء البلاد. تذكرت عيادة "محسن" والفلاحين الذين ينتظرون أحيانًا على الباب وبعضهم يجلس على درج السلم في انتظار دورهم. فكرت أنه يهدر وقتًا معي لأن "محسن" سوف يهدر وقتًا مع مريض بالكبد سيرسله إليه ذات يوم.

مرت فترة صمت قصيرة، ثم أخذت ملامحه جدية وانتباهًا. أعرف تلك النظرة من عملي في الوكالة. البائع الجيد من ينظر إلى وجه الزبون ويخمن مزاجه وغرضه. هذه نظرة البائع الخبير. سمعته يسألني أن أصف ما أشكو منه. اكتست نظرته الآن بالتحفز، كأنه يجهز الرد قبل أن يسمع، يشحذ ذهنه ليلتقط المرض من العبارة الأولى. توقفت عند تلك النقطة. رأيت أنه يخمن مرضي قبل أن أنطق. ينظر إليّ ويجري عمليات حسابية في ذهنه يستبعد احتمالات ويرجح أخرى. تابعت فكره ولم أنتبه إلى ورطتي إلاّ عندما طلب مني مرة أخرى، أن أصف حالتي. تركت أفكاري سارحة وعدتُ أنظر إليه، وأستعد لوصف حالتي، عندها وجدتني أسأل نفسي: لم جئت إلى هنا؟ وماذا يمكن أن يقدم لي شخص يفحص مريضًا في خياله؟ لن يقدم غير أدوية مثل الأقراص التي أتناولها.

أصبح الموقف صعبًا. ماذا أفعل؟ بحثت عن بعض الكلمات أرد بها. كلمات بسيطة عن حالة الخلاء التي تحيطني والصداع الذي يلازمني وآلام جسدي التي لا أعرف كيف أصفها. لم أجد كلمة واحدة. الخلاء الذي كان عليّ وصفه، استبد وفرد نفسه ونفى أي كلمة أعرفها. لم يعد هناك

غير مشاعر بلا ملامح. كلما حاولت- لكي أنهي الموقف- أن أشكل جملة، لا أصل إلى أول كلمة، وعندما أجبرت نفسي على التفكير بجدية في سؤاله وأجهز وصفًا لما أشعر به، أدركت أن الأمر لا يمكن حكايته بل رؤيته. حاولت أن أقول أي شيء. وجدت لساني يلتصق بحلقي. عرفت أن الأمر ليس عنادًا، إنه كف حقيقي، وبإدراكي أن الكلام ضاع من لساني، زاد توتري، واستقر الصمت الناصع الأبيض.

ظل الدكتور "نادر" ينظر إليّ مبتسمًا بسمة العارف بتلك الحالات، وكلما ظهرت ابتسامته ملتصقة بوجهه الريفي الماكر، كلما ابتعدْتُ بعيدًا، أمشي في فراغ لا صوت فيه غير وقع أقدام على درج سلم في بيت خال، سلم لا ينتهي أبدًا، وقع أقدام، درجة ثم درجة، وشخص يوغل مطمئنًا كأنه لا يريد أن يصل. رأيته يمد يده بورقة وقلم، وقال إنه يمكنني أن أعبر بالكتابة. لم يكن الأمر على هذا النحو. حاولت أن أشرح له المشكلة، لكني لم أجد الكلمات التي أوضح بها، أن الأمر ليس كفًا عن النطق، بل ضياع للغة. لم أعد أحاول شيئًا واستغرقت في متابعة صوت الأقدام تصعد السلم. نظر إليّ متوترًا وأجرى مكالمة مع محسن، الذي جاء واصطحبني إلى البيت، وأعطاني حقنة تحت وعيي.

بعد عدة أيام بدا لهم أنني قد عدت إلى طبيعتي، فسألني "محسن" عما حدث؟ قلت: "لا أعرف، توقف الكلام، ثم ضاع نهائيًا". قال: "لا تقلق الدكتور نادر شاطر جدًا وسوف تستريح في التعامل معه". كنت أريد أن أسأله عن تفسيره لحالة الكف عن الكلام، لكنه كان مهمومًا بموضوع

آخر، وقال إن "حسن" متوتر منذ عرف أنني زرت طبيبًا نفسيًّا. في البداية أخفى "محسن" عنه الأمر، ولكن "الكف عن الكلام" أقلقه فتحدث معه.

انكشف الجانب المضحك من حياة عائلتي. الصورة التي يرعاها "حسن" ويظن أنه ورثها وعليه أن يصونها. كان الأمر غريبًا حقًّا عندما دخل علينا الشقة قبل أن ينزل إلى المحل في المساء، ونظر إليّ بغضب. لأول مرة ألمس الكراهية في نظرته. كراهية لم تظهر يوم موت أبي ولا يوم ضرب مريم، ظهرت الآن. نفس السمة التي كانت لوجهه يوم إصراره على دفن أمي في مقابر عائلة البري.

كان مضحكًا عندما وقف بجلبابه البلدي ذي الأكمام الواسعة ووجهه المستدير الذي يتوجه شعر أصفر خشن، يقول بجدية:

"أنت ناوي تفضحنا؟".

ولما لم يأته جواب من أي منا، قال:

"ماذا سيقول الناس عن أولاد البري؟".

واقترب من محسن:

"إصحى يا دكتور، أخوك لا مريض ولا حاجة، الحكاية إنه بيبلبع".

ثم ضرب كفًا بكف:

"دكتور نفساني على آخر الزمن، ألم تفكر في اسم العائلة؟".

كدت أضحك، لولا أن الدهشة من هيأته وهو يقول كلامًا ساذجًا

بكل تلك الجدية والغضب شتتت انتباهي:

"دكتور نفساني؟ مجنون يعني؟".

كنتُ أنظر إليه شاردًا. يبدو أن فكرتي عن بلاهته تسللت وظهرت على وجهي، لأن عيناه برقت واقترب مني وهو يرفع يده باتجاه وجهي:

"لازم تبطل هطل. فاهم؟ لازم تبطل لعب العيال".

ظننت أنه أنهى كلامه وانتهى فوران الغضب، لكنه استدار وعاد يقول بنفس الحدة:

"اسمع؟ لازم أزوجك، لن ينصلح حالك إلاَّ عندما تتعلق في رقبتك امرأة وأولاد".

ثم نظر إليّ بتفحص:

"سأزوجك حتى لو كتفتك وأخذتك إلى المأذون".

* * *

(٢٥)

لم أعد مواظبًا على الذهاب إلى العمل. ولا زيارة الطبيب. أحيانًا في المساء أجد نفسي أرتدي ملابسي وأذهب إلى الوكالة وأبقى هناك حتى أتعب، أو تنفجر في ذهني فكرة أود أن أتحدث فيها مع الدكتور "نادر"، ربما نصل إلى فهم لمرضي. لحظات قليلة تطل فجأة، ثم تنطفئ بسرعة.

لم أعد قادرًا على رؤية أي شخص. أقمت في شقة خالتي، وارتبطت بالأدوية لأنها تساعدني على تمضية الوقت. حافظت على مواعيد تناول المهدئات والمسكنات حتى أصبحت أكثر حضورًا من مواعيد الأكل والشرب والذهاب إلى الحمام، ونظمَت حياتي مثلما ينظم شروق الشمس وغروبها حياة الناس. أقضي الوقت راقدًا في السرير أو جالسًا في الشرفة، أتابع حركة السيارات والناس في الميدان، أترك عيني تستقر على أي شيء وأراقب. عاد المراقب مرة أخرى.

لا أعرف كم مضى من الوقت على هذا النحو الرتيب، وكل ما عشته راح يخفت ويبتعد، حتى جاءت الليلة التي أطلقت فيها أول صيحات الغراب.

كانت ليلة عادية، باردة. أطفأت مصابيح الصالة وغرفة الجلوس. جلست في الشرفة، وشعرت بتوتر في جسدي، توتر مثل التنميل، ثم غاب المشهد، عن ناظري، توقفت عن سماع صوت السيارات ومتابعة حركة الشباب على الناصية. انقطاع تام؛ لحظة خافتة كأنني أصبحت في غرفة مظلمة وسمعت وشيشًا من بعيد، مثل وشيش قطار في طريق ريفي في الليل، فجأة أحاطتني ظلمات من كل صوب، ولم أعد موجودًا. تلاشى ذلك الشخص الذي كنته. هذا كل ما يمكنني قوله عن تلك اللحظة، لكني أعرف أنني سأظل غير قادر على الاقتراب منها. فجوة هائلة من الظلام، غبت فيها ثم فجأة وجدتني أقف وأضع كفي حول فمي وأصيح:

"واق واق واق، واق، واق واق، واق، واق واق،

واق واق واق واق واق واق واق........

الصيحات متوالية تأتي من أعماق بعيدة، يزيد من قوتها جسدي المرتعش والطاقة التي تلقيني في اتساع بلا نهاية. رحلت إلى بعيد، ومن هناك لاحت أسطح المباني والعمارات. رأيت الطرقات خيوطًا رقيقة تلمع المصابيح فيها مثل رؤوس دبابيس. كتل المباني مظلمة متراصة تترقب. بعد قليل جاءت دفعة أخرى من "الواق واق واق واق واق"؛ قوية هذه المرة وقريبة من سطح العمارة، ترتد من الجدران كأنما تتردد في جوف بئر، لها صدى وتجسيم. اقتربْت مرة أخرى من الشرفة ومن جسدي، لكن الشارع ظل بعيدًا. الشباب أمام الكشك أحجامهم صغيرة كأنهم علب كبريت، والنوافذ التي فتحت يصلني صوتها هشًا.

كنتُ خفيفًا متخلصًا من كل شيء. كنت بعيدًا، بدون أي "ذات"، لم أكن غير "الواق واق" التي راحت تفرد نفسها بلا توقف.

حل صمت كثيف ينصت للصيحات التي تلاشت. سمعت الشباب يتحدثون، ثم حاول شخص تقليد الصوت كأنما يرغب في استعادته، لكنه توقف بعد محاولات قليلة؛ فصوته تردد ضعيفًا ومصطنعًا. كنت أتابع ذلك كأنه صور باهتة.

في تلك الليلة لم يكن هناك سباق سيارات. دخل ثلاثة شباب الممر الذي يفصل عمارتين، وأشعلوا سجائرهم، وراحوا يدخنون بعمق وتتوهج الجمرات مثل نقط لامعة. على الرصيف ركن بعضهم ظهره إلى سياج المركز الطبي. ركب أحدهم سيارته وغادر المكان. بقيت جالسًا حتى بان ضوء الفجر في السماء. ما حدث لي في الأيام التالية كان مدهشًا. شعرت بالخفة، وبدا لي أنني تحررت من ثقل المرض، ولم أعد في حاجة إلى الأدوية، لأول مرة أشعر بأنني كائن حي وحقيقي، ولكن الأمر لم يستمر طويلاً. تراكمت الأتربة وغلفت تلك اللحظة أيضًا.

توهمت أن الشباب ينتظرون هذا الصوت مثلي، لكني لا أملك سيطرة عليه، فله قانون غرائز من الصعب إثارتها بطريقة صناعية. مرت الليالي بدون صوت الغراب. بدأ الشباب يقلدون "الواق واق". لم تكن لأصواتهم تلك الطبيعية ولا القوة التي انطلقت بها الصيحات في المرة الأولى. أحيانًا أسمع صخبهم هناك بجانب الكشك يتبارون في تقليد الصوت. أشعر بأنهم ينعقون على ذلك الكائن في جوفي الذي لا أعرف

أين يسكن ولا متى يتحرك.

كنت أشاهد كل ذلك بعيدًا من مكمني. لاحظتُ أن أعدادًا جديدة من الشباب بدأت تسهر في الميدان، وبعد أن كان بائع الفول والطعمية على ناصية شارع المتحف، وكشك أم أشرف، هما ما يضيئان ليل الميدان بدأت بوادر تغير، عندما أخذت شقة في الطابق الأرضي من العمارة الكبيرة المواجهة لشارع بطرس تفرغ من سكانها وتباع غرفها كمحلات. بعد ذلك تسارع الأمر، وأفرغت شقق من الطوابق الأرضية من سكانها. لا يمكنني أن أنسب تلك التغيرات إلى صوت الغراب بل إلى تجمع الشباب الذي صار صوت الغراب ملمحًا من ملامح سهرهم.

أصبح المكان مكدسًا بالسيارات وبدأت تحدث اختناقات مرورية في الليل، وتضطر إحدى سيارات الشرطة أن تجيء من نهاية شارع سعيد تطلق صوتها الأجش المتقطع، وينزل منها صول، أو ضابط ينصح الشباب بفسح الطريق.

نعيق الغراب حرر الميدان وبث فيه روحًا جديدة؛ فقد بدأ الشباب يرتدون ملابس سوداء بالكامل. بعضهم راح يرسم على الحيطان رسومًا غريبة مثل الكتابة الهيروغليفية، وبعضهم رسم جماجم وعظامًا متقاطعة على أسوار المدرسة الابتدائية وعلى كشك الخبز. في كل مكان انتشرت الجمجمة والعظمتان المتقاطعتان وأصبحت كومة الشباب السوداء تقيم كل ليلة مباراة لمن يمكنه أن يصدر صوتًا متقنًا للغراب. مباريات أزعجت الجيران، وجاءت الشرطة كثيرًا، وطاردتهم، لكنهم كانوا

يعودون ليقيموا مباراة "صوت الغراب".

في الحقيقة لم أكن أستريح لطريقتهم في تقليد الصوت، طريقة سطحية وفيها رداءة تُفقد الصرخة سمتها، ولا تصل بالصوت إلى قوته المثيرة للقشعريرة، وكنتُ خائفًا أن يؤثر ذلك على الحس بالتحرر الذي شعرت به عندما نعقت النعقة الأولى.

كنت حذرًا، لا أتعجل الأمر. تركتُ الغراب ينمو. لم أزعجه. لم أدعه للظهور أو أجبره عليه. تركته يبلل ريشة بماء عميق غير مرئي، لا أعرف مصدره، يتغذى بالظلمات التي يجيء منها، ثم عندما يريد أن يرفرف ويطير فليفعل. لا شيء يمكن أن يعوقه. في بعض الأحيان أكون واقفًا في الشرفة. الشباب يحيطون بكشك "أم أشرف"، ثم يتوجهون إلى السيارات، وبعد قليل أسمع صريخ احتكاك إطارات السيارات بالأرض. أشعر بخشونة ريش الغراب في داخلي، لكن الصوت له قانونه. منحني التلصص خبرة في السكون والصبر، وكنت أعرف أن أي محاولة لدفعه إلى الوجود سوف تحطم طريقة وجوده، ووقتها سيكون من الصعب تحمل النتائج؛ فلا أعرف كيف تَكَوَّنَ صوت الغراب، ولذا كنت حذرًا حتى لا أحطم طريقته في الحياة، فمن يدري ماذا يمكن أن ينتج عن ذلك؛ ماذا سيكمن لي في تلك الخرائب التي سيتركها، ولا كيف ستتصرف الكائنات التي سيتحول إليها، ولا الكوابيس التي يمكن أن أعانيها، فتركت الأمور تحدث.

أدركت أن "صوت الغراب" سيقلب هذه المنطقة. جغرافية المكان

ستتغير كأنما سيحررها النعيق من الثبات، ولن يتمكن أحد من أن يعرف السبب الذي دفع تلك المنطقة لكي تكون واحدة من أهم مناطق المدينة، عندما سيرتفع سعر الأرض وشقق الأدوار الأرضية في العمارات المحيطة بالميدان سوف تُخلى. البيوت القديمة سوف تهدم، وتقوم مقامها الأبراج، سيحدث ذلك عندما لا أكون موجودًا، عندما سأتحول إلى غراب وسيكون هذا التغير مفيدًا لي، فهناك على الأسطح العالية لتلك الأبراج سوف أعيش، ناسيًا حياتي الأرضية، ناسيًا ما كنت أعيشه ذات يوم على أنه ألم لا يحتمل، سوف أكون هناك لكن بعين أخرى وبطريقة أخرى في الحياة.

الميدان صامت، وكشك "أم أشرف" مضاء، والشباب مستندون إلى سياج المركز الطبي، أو يتجولون في الميدان طلبًا للدفء. على الناصية وقف أحدهم يقنع آخر، أن ينتظر قليلاً حتى يطلع الفجر ليعودوا معًا إلى البيت. في تلك اللحظة سرى شيء في الجو، لا يمكنني تحديد طبيعته، شيء خفي. حواسي الظاهرة لن تفلح في التقاط علاماته، مهما تعللتُ برصد ظواهر مثل السكون ونسبة الضوء، واللحظة الدقيقة للتحول التي يمكن فيها التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود، وصمت الشباب الحزين أمام انتهاء الليل وبداية يوم جديد. كل ذلك لا يمكن أن يساعد في فهم طبيعة اللحظة التي تحرك فيها الغراب مرة أخرى وأطلق صيحة. هذه المرة أكثر عمقًا ووضوحًا، وبدون توقع، فقد وجدت جسدي يستقيم وأرفع يدي باتجاه أذني كأنما سوف أؤذن وانطلقت الصيحة:

"واق واق واق واق واق واق واق

واق واق واق واق واق واق واق واق واق".

كانت "الواقات" خشنة متواصلة، ما إن أتوقف قليلاً حتى أجد لها بقايا هناك ترفرف، تندفع دفعة أخرى، أخرى، أخرى أقوى مما سبقتها وأوضح، وهكذا حتى تخيلت أنني لن أتوقف، والصيحات لن تنتهي حتى أتلاشى.

لا أعرف متى جلست على المقعد، وشعرت برعشة قوية يتخللها صرير نوافذ تُفتح، وصمت ثقيل يغمر الميدان، يشبه الصمت الذي كان يعقب انفجار السماء أيام الغارات. هذه المرة لم أسمع صوت ترديد الشباب لصوت الغراب، بل سمعت السيارات تتحرك ببطء. بعد ذلك انكشف الميدان لنور الفجر، لم يكن هناك أي شخص في الميدان، حتى كشك "أم أشرف" كانت نافذته مغلقة بلوح الخشب، والرعشة لا تفارق جسدي.

إن كانت المرة الأولى لصيحة الغراب قد كشفت لي التحرر وعرفتني أن الأدوية لن تفيد، وأنني حر حتى لو كنت محصورًا في دائرة صغيرة. حريتي تكوّن نفسها في الظلمات، وتتجسد، حتى لو على شكل ما يطلقون عليه: "مرض نفسي"؛ فإن هذه المرة أطلعتني على جانب من الطبيعة مخيف، لا يمكن وصفه، ولا الإشارة إليه، لم يتحمله وعيي. فما إن رقدت على الفراش، حتى عاينت الهوة العميقة في الداخل التي لا يمكن الخلاص منها، عاينت- مُجسدًا- الرعب القديم الذي عاناه البشر

الأوائل أمام أول نار، وأدركت أن كل ما في الحياة قائم، من أجل تلافي الرعب الذي شعر به الإنسان تجاه الحياة، من أجل التخلص منه وتلافيه بالادعاء بأنه غير متواجد، باختراع أسر وبلاد ومدن ونظم وحروب والانغماس في الملذات: رعب الفناء المطل في الداخل مثل حفرة عميقة لا يمكن الوصول إلى أعماقها. عانيت في تلك الليلة من حُمَّى، وفي نفس الليلة حلمت حلمي الأول بالطيران:

كنت أقف على السطوح في البيت القديم في شارع الحلو. الريش يغطي جسدي. الريش الأسود الثقيل. كان "إبراهيم الألفي" يقف بجانبي على هيئة أستاذ في الجامعة. شكوت له من الآلام التي لا تُحتمل في أثناء نمو الريش بهذه الكثافة، قال بالإنجليزية وبلهجة فخمة: "لا تقلق سوف تتخلص من تلك الآلام بمجرد الطيران". سألته ماذا يعني، قال: "كل ما عانيت منه هو أعراض اكتئاب أهل العالم القديم". سألت مرة أخرى: "ماذا يعني؟". قال: "هناك نوعان من الاكتئاب، اكتئاب العالم الجديد وهو اكتئاب نزق طفولي، رغبة أنانية في متعة لا توفرها كل أشكال الرفاهية التي صنعتها الحضارة الحديثة؛ أما اكتئاب العالم القديم فهو اكتئاب آت من العيش على نفس الأرض آلاف السنين، إنه إدراك مفرط بدورات الزمن، بأن الزمن مثل الدوامة ولا سبيل للفكاك منه. ما تعاني منه هو اكتئاب أهل العالم القديم". سألته: "هل كان كهنة المعابد القديمة يعرفون هذا الاكتئاب". ضحك قائلاً: "لا لا لم يعرفه الكهنة. الاكتئاب عرفه الفلاحون في الحقول عامًا بعد عام، عصرًا بعد آخر، يزرعون نفس المحاصيل ويحرثون نفس الأرض، يتزاوجون ويتناسلون

بلا توقف. الكهنة مثل الأساتذة في أيامنا يبررون وظائفهم"، وضحك كأنه يشير إلى نفسه. فجأة غام وجهه وأخرج من جيب سترته مسدسًا ورفعه في الهواء مستعدًا لإطلاق طلقة البدء، وقال بصوت خشن كأنه مدرب خيول: "مستعد؟".

صحوت من النوم خائفًا من نفسي. خائفًا مما يحدث هناك في أعماقي. كانت شقة خالتي الواسعة فيها من ضوء النهار الشتوي المُصفى ما ظهر لي على أنه ضوء سادة خال من الزمن، وهو ما أقنعني بأني ذهبت بعيدًا، وأن السنوات الطويلة السابقة وكل التفاصيل التي عشتها كانت تجهيزًا لتلك اللحظة التي سوف يتوقف فيها الزمن. شعرت بنفسي ثقيلاً كأني قد مت. سمعت طرقًا على زجاج شراعة الباب. التفاصيل اليومية أعادتني إلى نفسي القديمة، كان طرقًا بأظافر رقيقة عرفت أنها "مريم"، وقد جاءت لتطمئن عليّ، قمت مترنحًا، ثم وقعت بمجرد أن فتحت لها الباب.

***

(٢٦)

الهوة التي فتحها صوت الغراب ازدادت اتساعًا، وأخذت نفسي تبتعد تحت تأثير أدوية الاكتئاب، وظهر أن ما يحدث هو مجرد وهم، وأن الحقيقي هو الصمت الذي يمتد بيني وبين ذلك الكائن الذي كنته. لم أعد قادرًا على رؤية من أنا، حتى كلمة "أنا" بدت غريبة عندما يضطرني الحديث إلى استخدامها، وعندما يكون لزامًا أن أستخدم الضمائر المضمرة يكون الأمر أفضل. فعندما أقول "قمت"، "أكلت"، "نمت"، يبدو الأمر أن الذات ذائبة في فعل القيام والأكل والنوم، لكن استخدام الضمير المنفصل "أنا" كان مزعجًا، وبخاصة أنه لم يكن له أية دلالة؛ فكلمة "أنا" لا تشير إلى شيء، غير الفراغ.

لم أهتم بشيء أبدًا منذ اللحظة التي حملتني فيها "مريم" من شقة خالتي إلى بيت أبي. غدا كل شيء مساويًا لكل شيء، حتى الأحزان بدت بعيدة، وعندما أفكر في الجنين المجهض في رحم "ابتسام" لا أجد أي أثر للحزن. لقد تحولتُ إلى شبح، وفي الداخل لم يكن هناك غير البياض، حتى صخب البيت الذي عاد بسبب وجود "مريم" وحديثها الدائم مع

أولاد إخوتي حول دروسهم وهواياتهم وإصرارها على أن تعود مرتين في الأسبوع لرعايتي، كان يحدث بعيدًا.

لم يعد هناك ما يجذبني أو يثير اهتمامي. كنت أعيش بهذا المزاج "السادة" طول الوقت وعندما قالت "مريم" ذات يوم إن كانت مضادات الاكتئاب تجعلك على هذا النحو من الصمت والعزوف أوقفها. قلت لها الأمر يتساوى. ربما كنت في حالة من التوهان والاستغراق في أفكاري يوم أن قالوا إنهم أمسكوني قبل أن أرمي بنفسي من البلكونة.

الآن بعد أن جاءت "مريم" وفكت أسري لا يمكنني أن أقول إنهم على خطأ ولا على صواب، ما كان في ذهني لم يكن الطيران، كان فكرة عن الطيران، أما كيف يمكن أن أحاول الطيران ولم ينبت لي ريش فهذا ما لا يمكنني فهمه، هم يفهمون أكثر، يبدو أنهم أكثر ذكاءً.

ذات ليلة كنت أغيب في ضبابي، جالسًا بجوار "مريم" في الصالة عندما أبلغها "محسن" بأن حسن يدبر أمرًا يخص الميراث، وأننا يجب أن نتحدث مع المحامي حتى نحفظ حقوقنا. كانت شاشة التليفزيون تلقي بنشارة الضوء الأزرق؛ ذبذبات مضيئة تندفع إلى الخارج ثم تعود مثل حشرات صغيرة لتلتصق بالشاشة وتنشر وشيشًا لامعًا، عندما شعرت بهبة انتباه، أصبح الصوت واضحًا في التليفزيون ورجل ضخم يتحدث عن صكوك، صكوك، الكلمة غريبة تتردد مثل رنة ثقيلة، صكوك، صك صك، الكلمة من معدن، من نحاس مثلاً.

كان النقاش بين "مريم" و"محسن" مستمرًا. ذلك النقاش الذي أصبح

ملازمًا لهما كلما عادت من القاهرة. هذه الليلة كان الأمر أكثر جدية، وتلك الحشرات تروح وتجيء من داخل الشاشة، تغيب هناك في أعشاشها وتعود محملة بشحنات ثقيلة من الضوء الأزرق. قال "محسن" إن "حسن" يدير التجارة لحسابه، وأنه اشترى قطعة أرض كبيرة في الساحل الشمالي وأنه لا يصح أن يتصرف في الميراث على هذا النحو. اختلطت كلمة "ميراث" مع كلمة "صك"، وغمرتهما الحشرات القادمة من شاشة التليفزيون بشحنة ضوء، "ميراث"، "صك"، عندها وجدت الكلام يخرج من فمي، وجدتني أسأل "محسن" عما يعني بالميراث، فرد بجدية: "حقنا". سألته: ماذا يعني بـ"حقنا". أصبحت في مزاج رائق، بسبب جدية "محسن"، وانتباهه، وتحدثت بطريقة بدت له محيرة فلم يكن يعرف ما إذا كنت أمزح أم أتحدث بجد. بدا الأمر على هذا النحو لي أيضًا. تحدثت بطريقة جعلتني أسأل من هذا الشخص الذي يتحدث؟ وطول حديثي كنت أعيش نفس الحس بالاستغراب الذي يفاجئني هذه الأيام أمام المرآة.

تحدثت عن أن فكرة الميراث من الأصل فكرة غريبة. متى بدأت؟ رجل من قديم الزمان يعيش في حقل، وعنده قطعان ماشية، ثم يموت، فيأخذ ابنه ثروته. ابنه يفكر طوال الوقت في موت أبيه. فكرة أن الثروة ستصبح له في النهاية جعلته يفكر في حياة الأب على أنها عقبة، وبخاصة عندما يكف الأب عن أن يمثل أي شيء طيب، بالنسبة إليه. ألا تدهشكم تلك الروابط الهشة التي تربط الناس في بيت واحد؟ هل تشعرون بها؟ هل تقدرونها؟ بصراحة طوال الوقت تدهشني، لم أشعر

بمعنى "الأبوة" و"الأخوة" و"الأمومة"، كيف يمكنني أن أفرقهم عن بقية الناس؟ ما الذي يجعلهم أهم بالنسبة لي من الآخرين؟ لا يمكن أن يكون هذا أمرًا جديًا أو معقولاً، إنه تنظيم من أجل الثروة، والأقربين، لماذا الأقربون؟ لماذا ليس الأبعدون؟ المعيار صعب وفاسد، القرب والبعد معيار لنقل الثروة، وليست الحاجة إلى الثروة. الثروة لمن يحتاجها وليس لمن لا يحتاجها لمجرد أنه قريب. بصراحة لو لم نعش في نفس البيت لما شعرت بك. لو ولدت في مكان آخر في مدينة أخرى، من نفس الأب والأم، ولم أعرفك أبدًا، لما شعرت بك، ولا كان لفكرة الأخوة وجود، إنها خيال، مثلما يدهشني أن "حسن" أخي، ماذا يعني هذا؟ هذه خرافة مثل خرافة الميراث. تخيل الميراث يؤول حسب درجة عائلية تخص الدم. من دمه صاف يكون حظه أوفر، ومن دمه ملوث بدم عائلات أخرى، يكون حظه أقل. ما هو الجهد الذي بذلْته لكي يؤول إليّ الميراث؟ لم أفعل شيئًا، ليس لي حق في هذا. يجب أن تعود الثروة من حيث جاءت، إلى من تعب فيها، أو يأخذها معه إلى القبر، القدماء أكثر حكمة عندما كانوا يدفنون الثروة مع صاحبها، هذا هو الأمر أن يكون ضمن طقوس الموت مثل الغسل والصلاة على الميت، أن توضع ثروة المرء معه في قبره، عندها ستكون المقابر أغنى من البيوت، ربما هذا هو الحل لكي يتوقف هذا المسار المليء بالحرب، والكراهية، لا تدعهم يعطونني شيئًا، أعتبر نفسي غير موجود، ليس لي ميراث. من أعطاني هذا الحق؟ هل مجرد أن الرجل بذرني في رحم أمي يجب على أن آخذ تعبه، لا أفهم، لَم أستحق هذا الميراث عن عم "دسوقي". مجرد أنني أحمل

اسم البري؟ ماذا يعني هذا؟

أطنان من الكلام والعبارات لم أفكر فيها مطلقًا، لم أعرف من قالها، كانت تخرج مثل دفقات صوت الغرب، كانت "مريم" تقترب مني تحاول لمسي، وكلما حدث ذلك كلما ابتعدت عنها ويأتي الحديث أكثر غضبًا وعنفًا، أما "محسن" فقد صمت ونظر إليّ ورأيت في عينيه محاولات الطبيب في التأويل والتشخيص، ما جعلني راغبًا في الضحك. كل ما يفعلونه فساد فكيف يمكن له أن يفهم ما أشعر به. أكملت كلامي غير عابئ بهما:

لا أفهم روابط الدم، تلك الروابط التي تربط الدم بالثروة، سيظل الدم مرتبطًا بالثروة، وستظل الدماء تسيل ما دام هذا التقديس للثروة يسري في الجسد مثل الشحنة الكهربية، لا بد أن تتوقف الدورة، ثم أن الرجل الذي يملك الثروة لا بد أن ينظر إليّ على أنني أآخذ حياته، أنتظر موته، ثم أنه هو الآخر يمن عليّ ويعايرني بأنه منحني الحياة، وأنني عالة عليه، يفكر أنه لم يمنحني الحياة فقط بل الثروة أيضًا، ويظل وجودي مرهونًا به، يظنني نفسه، ويريد أن يتحكم بي، كأنه من خلقني، وأصبح مدينًا له بوجودي، وهو أمر معقد، ومحزن، ومن جهة أخرى فإنه ينظر إليّ على أنني أآخذ كل شيء على الجاهز، وأنه يخسر حياته مقابل منحي أنا حياة، إن تلك العلاقة مبنية على أساس من الضغينة، لا بد أن تطيعني وأن تكون تحت أمري، لا بد أن تكون مؤدبًا وتحترمني وتنفذ كلامي، تدخل هنا الأخلاق والأدب، وتشتبك مع الدم والثروة.

إن كانت تلك الأفكار لها بعض النسق، فقد تبعتها هلوسات، كلمات، كلمات، لم أعد أراها أو أشعر بها. توقف الكلام الذي عانيته منذ زيارة الطبيب، تَبَدَدَ تلك الليلة، ولم أشعر بنفسي إلاّ عندما جاء "حسن" وأمسك ذراعي بالقوة ليعطيني "محسن" حقنة، نمت بعدها فترة طويلة، حتى رأيت "مريم" تعد حقيبتي، وتقول إنني سأقضي عدة أيام في مصحة يديرها أحد معارفها.

* * *

(٢٧)

أيام المصحة بيضاء، لم أعترض، أو أقاوم. ساعدتني "مريم" في ارتداء ملابسي، وركبت بجوارها السيارة صامتًا. كنت طافيًا فوق تدبيرهم لأموري. المصحة في أحد المدن الجديدة على حدود القاهرة، وصلنا في المغرب، تلك المدن غريبة لها حس هش مثل قشرة بيض، لم تأخذ سمة الأماكن بعد. إنها مساحة خالية مشغولة بالبيوت البيضاء، والضوء فيها شكل من أشكال الخلاء.

قضيت أيامًا متشابهة بلا ملامح تقريبًا، ممرات نظيفة، وجدران بيضاء، أطباء وممرضات بملابس بيضاء، يتحركون كأنهم يراعون ألاّ يحطموا قشر البيض الذي يسيرون فوقه. صمت، صمت، كل شيء صامت، حتى الرواد كأنهم عجائز، رغم أن بعضهم أصغر مني سنًا، سيدات وحيدات أو رجال انصدت أنفسهم عن الحياة، يجلسون في الشمس على كراسي من الخيزران. كل شيء صامت حتى الجدارن يسيل منها الصمت مسحوقًا أبيض. لا بد من أنهم يفكرون أن ما ينقص الناس هو الصمت.

غرفة نظيفة ضيقة. زجاج النافذة يكشف السماء. هذا أهم شيء، السماء الواسعة، لكنها تبدو في هذا الوقت من العام، هلام من النور الأزرق، بلا ملامح، سماء بعيدة كأنها طيف، ليس لها كثافة السماء فوق مدرسة البنات وفي أيام الشتاء عندما تبدو قوية وصلبة تعوم فيها سفن من اللون الأبيض المنفوش. خلال اليوم لا تحضر السماء إلاَّ فترة بسيطة في الصباح الباكر قبل أن يتكاثف ضوء الشمس، وفي المساء قبل أن يغادرها نفس الضوء. في الحقيقة لا تفرق المصحة عن أي مكان آخر إلاَّ في أنها جسمت الخلاء. هناك وقت للتريض، مساحة من النجيل الأخضر وعدد من أشجار لا أعرف أسماءها، تترك ظلالاً كثيفة، تحتها مقاعد من الخيزران. المصحة مكان غريب كأنه حلم، ساعدت أن أفقد صلتي نهائيًا بما كنت.

كان الطبيب صديق "مريم" الذي تنوي أن تتزوجه، وقد حاول أن يتحدث معي كثيرًا. لم يكن عندي كلام، وعندما أصر قلت له بصراحة إنني أفضل الصمت وأن الكلام قد فارقني، لكنه ألح كثيرًا، وذات يوم كنت مرهقًا، قلت له:

"اسمع أنت لن تفهم، صدقني لن تفهم، كيف يمكنك أن تفهم طريقة حزني، لونه، وطريقة ظهور الخواطر في ذهني وتلاشيها، وبالأساس كيف يمكنني أنا نفسي أن أشرحها لك، إن كانت اللغة نفسها لا يمكنها أن تنقل حالتي، لا فائدة، الكلام غير قادر على الأمر، وما سأحاول أن أصف لك ما هو إلاَّ شبح، سوف تفهمه تبعًا لطريقتك في الشعور ولما

درسته في كلية الطب، توقف عن الأمر، ما سأصفه لك ما هو إلاّ شبح، فلم نملك بعد وسائل نقل الطريقة الخاصة لمشاعرنا، توقف، ليس عندي شيء".

قال لمريم في اليوم التالي، إن وجودي هنا بلا فائدة وأنه لا خطر مني، فالأسابيع التي قضيتها كانت مثل صفحة ملساء، لم يصدر أي شيء عني، ولم أطلب أي شيء، ولم أُحدث أي ضجة، كنتُ مريضًا مثاليًّا كما قال، وقال لمريم وقد كان على حق، إن الشفاء يبدأ من الكلام وإن كنتُ قد فقدت رغبتي في الكلام، فلا يمكن أن يحدث أي تقدم. الكلام هو المفتاح كما قال، وكنت أعرف أنه على حق. لم يكن هناك أمل.

قضيتُ عدة أيام في شقة مريم في وسط القاهرة وحدثتني عن المشاكل التي دبت بين "محسن" و"حسن" حول أرض الساحل الشمالي وعن المصادر التي جاءت منها الفلوس التي اشتراها بها، كانت الأمور غريبة بالنسبة إليها ولم يكن عندي أي رغبة في أن أتحدث. كنت أصحو من النوم ناظرًا إلى الجدران وأقضي بعض الوقت حتى أتعرف على المكان وأعيدُ إلى وعيي بعض البيانات التي تساعدني على المواصلة. في نهاية الأسبوع تعبتُ من الأماكن الغريبة وطلبت أن أعود إلى البيت. في أثناء العودة كنت أشعر بشيء يتحرك في أعماقي، شيء لم أكن أبدًا قادرًا على فهمه، وفي الليل عانيتُ من آلام شديدة في جسدي، مثل آلام الحساسية. وصف لي "محسن" دواء للحساسية ولكن الأوجاع لم تتوقف، كان "محسن" ينظر إلى بشرتي، ويقول ليس هناك أي أعراض، وأصمتُ

عائشًا مع تلك الآلام التي لا يمكن الخلاص منها.

عادت "مريم" يوم الجمعة، وكنتُ قد فقدت بعض الوزن، جلسنا نتحدث في الصالة. كان باب غرفة الجلوس مفتوحًا، مواجهًا باب البلكونة، وكانت الشمس تبرق هناك على نوافذ المدرسة، تُثير بريقًا وهاجًا، وكنتُ صامتًا وهي تحكي لي شيئًا عن التحقيق الصحفي الذي تجريه لمجموعة من الشباب الذين تسللوا من الحدود ودخلوا فلسطين ليشاركوا في العمليات الفدائية. في تلك اللحظة سمعت الطلقة، سمعتها واضحة شقت الطريق وحركت كل ما في جسدي من حيوية، وجدت نفسي أندفع إلى الشرفة بسرعة شديدة وأقف للحظات فوق السياج وأفرد أجنحتي وأطير مطلقًا ذلك الصوت الخشن الذي طالما أطلقته من بلكونة بيت خالتي:

"واق واق واق واق واق واق".

الاثنين ٤ مارس ٢٠١٣

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



"اكتشاف الخفة مبهج مثل الاستيقاظ من حلم مقبض، وإدراك أنك حي، أنت هنا، يمكنك أن ترى وتسمع وتشعر بلمس الهواء لوجهك، في لمحة عابرة تعرف ماذا يعني أنك موجود، لحظة خاطفة، تتلاشى لكنها تغمرك بالسر طول العمر".

"عندما سأتحول إلى غراب وسيكون هذا التغير مفيدًا لي، فهناك على الأسطح العالية لتلك الأبراج سوف أعيش، ناسيًا حياتي الأرضية، ناسيًا ما كنت أعيشه ذات يوم على أنه ألم لا يحتمل، سوف أكون هناك لكن بعين أخرى وبطريقة أخرى في الحياة".

تقع في حياتنا حوادث، بعضها يُشكل نطفة ما بدواخلنا، ويقتل بعضها الآخر أشياءً ربما يكون في قتلها ما يُكمل هيئة النطفة، قليلٌ ما يشعرنا بالخفة، وكثيرٌ يثقل كواهلنا، وربما يكون مجموعهما غير مفهوم لأحد سوى من تتشكل داخله تلك النطفة.

"صوت الغراب" هي واحدة من إبداعات الروائي والقاص "عادل عصمت"، التي يصف فيها ببراعة كيف يبدأ الألم في التشكل، كيف يفقدنا السيطرة على ذواتنا وحتى الإحساس بها، كيف يمكنه أن يغيرنا دون وعي منا، كيف تنقطع بنا سبل تخفيف الألم، وكيف أن هذه السبل ربما تأتي - على قلتها - في أبسط الأمور، دراجة ربما تكون أول ما يحفز الرغبة داخل المرء في الطيران.

ولد "عادل عصمت" في محافظة الغربية سنة ١٩٥٩، تخرج في قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة عين شمس سنة ١٩٨٤، صدرت للكاتب مجموعة قصص قصيرة باسم "قصاصات" عن الهيئة المصرية للكتاب، وعدد من الروايات، منها: "هاجس موت" و"الرجل العاري" و"حياة مستقرة" و"أيام النوافذ الزرقاء"، التي حازت على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية سنة ٢٠١١، عن دار شرقيات، وكتاب "ناس وأماكن" عن هيئة قصور الثقافة، ورواية "حكايات يوسف تادرس"، الحائزة على ميدالية نجيب محفوظ للأدب سنة ٢٠١٦ من قسم النشر - الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عن الكتب خان.




ISBN 978-977-6306-73-8
9 789776 306738